إبراهيم أوحسين

البدائي الذي يسكننا

THE PRIMITIVE THAT INHABITS US

تقديم:

د. عبد السلام دخان

إبراهيم أوحسين

البِدائيُّ الذي يسكُنُنا

تقديم

د عبد السلام دخان

الكتاب: البدائيُّ الذي يسكننا

المؤلف: إبراهيم أوحسين

تقديم: د. عبد السلام دخان

الإيداع القانوني: 2021MO0552

الترقيم الدولي (ردمك): 978-9920-33-047-3

الطبعة: الأولى 2021

الناشر: منتدى الأدب لمبدعي الجنوب / فرع أيت ملول (الرقم التسلسلي 42)

تصميم الغلاف: المصمم محمد أوحسين

خطوط الغلاف: الخطّاط محمد بوخانة

طباعة وتصفيف: مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب

الهاتف / الفاكس: 05.35.61.86.03

إهداء

- إلى والديَّ، عالِيَيِ المَقام، ومن دونَهما من أفراد الأسرة ...

- إلى روح جدّي الراحل " الحسن الفهري "، العائشِ عزيزاً والمُتَوَفَّى غريباً ...

- إلى كلّ المهمّشين، الواقفين هنالك على أعتاب الحياة ينتظرون إِذْنا بالدخول !!

- إلى معلّمي في الصف الرابع، الذي كاد يدْفِنُني حَيًّا، لأنني رفعتُ المفعول المطلق !!

تنويه

كُتبت المقالات المجموعةُ بين دفّتي هذا الكتاب في الفترة الممتدّة بين سنتي 2009 و2014، فكانت أوّل حِبرٍ يسيحُ على الورقِ من محبرتي نثراً صِرفاً، وأوّل لقاء لي بفنّ المقالة المُمعِن في الصّعوبة؛ الفن الذي لا يمنحك أقلّهُ حتى تمنحَهَ كلّ ما في كِيسِ قراءاتِك وما في مِخلاةِ زادِك. هي كتابات تركتها على صيغتها وصورتها الأُولَيَيْنِ دون إعمال القلم فيها لا بالإضافة ولا بالتهذيب، كالمومياء تُخرج من تابوتها لا تُمَسُّ إلاَّ بمشارطَ مُعقّمةٍ وقفّازات طبيّة.

متنُ الكتاب مكتوبٌ ومجموعٌ على السّجيّة لا على المنهج الأكاديمي، إذ ألحقتُ بالمقالات رسالةً وبضعة حوارات وقراءات هنا وهنالك، رامياً إلى رَفْدِ الحرف بالحرف والفكرة بالفكرة والمعنى بالمعنى، ففي آخر المطاف الفكر الإنساني كُلٌّ واحد وإن تعدّد لوناً وشكلاً، ولولا أن سبقني بهاء الدين العامِلِيّ لَوَسَمْتُ الكتاب بالكشكول... وليعذرني الأكاديميُّ الفاضل، صاحب المنهج الصّارم، الخبير في الترتيب والتبويب على هذه الفوضى "الأدبية "، فلست مِمَّن وطئت قدماه الجامعة،

ولستُ ممن عرف ما تزعُمُهُ محاريبها وما تدّعيه، ولا بِدْعَ في أنْ يكون على الجاهل وعلى الغافل غُرْمٌ أو حريجةٌ أو مَعَرّة...

التفكير بالتنوير في ممكنات الحياة

د. عبد السلام دخان[1]

كيف يمكن التفكير في أنساق فكرية وثقافية واجتماعية متعددة في كتاب واحد؟ وكيف يمكن لهذا التفكير أن يكون وفيا لمرجعياته الابستمولوجية، ونزعته الإنسانية؟

تبدو الإجابة السريعة قاصرة عن تشكيل فهم عميق لإشكالات هذا الكتاب وعلاقته بالواقع، وبممكنات الإحالات المادية، والإصرار على تعميق الجرح الثقافي والاجتماعي بغية إحداث تغيير في الإدراك العقلاني والصياغات ذات الطابع الوجداني بوصفها محاولة لتحقيق الإقناع بحجم التحولات والاختلالات، وكشف فاعلية الأسئلة ودورها التنويري ليس في تكريس الانقسام في تمثلات الفهم والأحكام المألوفة، ولكن في كشف موقع التنوير ودوره في إحداث التغيير المنشود.

(1) شاعر وباحث في جماليات التعبير، أكاديمية طنجة تطوان الحسيمة، أستاذ وافد بجامعة عبد المالك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، (الأدب المغربي، التأويليات والدراسات اللسانية) المغرب

تؤلف الدراسات المتضامنة في كتاب" البدائيّ الذي يسكننا" للكاتب الرصين إبراهيم أوحسين فسحة للتفكير الأصيل في إبستيمي الذات[1]، وتعالقاتها الثقافية والاجتماعية والنفسية والجمالية، إذ إن الأمر لا يرتبط بتمجيد نظريات جاهزة أو تكرارها، بل التفكير في أثر الذاكرة وربطها بالحاضر، وجعلها طاقة لإنتاج الأمل، وصناعة المستقبل. وربما هذا الميسم هو ما يمنح هذا الكتاب هويته لكونه أرضا بكراً ليس علاقة بالموضوع، بل بزاوية النظر وطرائق التفكير وكأننا أمام مشهدية مفتوحة يتداخل في تكوينها الفكري والثقافي والاجتماعي والنفسي، هذه المشهدية تشكل نسقا موحدا من حيث المرجعية والغاية وأقصد بذلك المرجعية النقدية، والغاية التنويرية. والمتأمل في مكونات هذا الكتاب الذي يضم: الهوية الثقافية، فن العيش، سرديات مجاورة، وشرفة الآخر يدرك أن إبراهيم أوحسين يراهن على الكتابة وفق مرجعيات فلسفية وجمالية[2] مرجعيات نقدية لا تنفصل

---

(1) ميشيل فوكو: تاريخ الجنسانية، استعمال اللذات، الجزء الثاني، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1991، ص9.

(2) André La lande ,vocabulaire technique et éristique de la philosophie ,Presse universitaire de lafrance ,2 Edition ,Paris ,1968.

عن مشهدية الحياة وتحولاتها، فالكتابة عليها أن تحمل قلقها الاجتماعي والفكري[1].

والحق أن لهذه المرجعيات الدور الكبير في استنهاض الأسئلة في علاقتها بالمعيش، وبالرغبة في عدم نسيان الماضي، أو إهمال الحاضر. ويمكن النظر إلى الهوية الثقافية بوصفها" ذلك الكل المركّب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع" [2]. هذا التمركز حول الهوية الثقافية هو ما يجعل الكتاب يكتسي مشروعيته وهويته في تآلف وتضامن بين مكوناته وممكناته التي يقترحها بعمق وتفكير أصيل إبراهيم أوحسين على قرائه.

وجهة هذا الكتاب هي التنوير[3] وإقامة حوار مفتوح ومنتج مع الذاكرة والحاضر، وليس المقصود بالذاكرة هنا ما تشكل في المضي وتم

(1) ينظر كتاب: غريم غيلوتش: فالتر بنيامين: تراكيب نقدية، ترجمة مريم عيسى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى2002

علي السيد الصاوي،نظرية الثقافة، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى 1997، ص (2).09

(3) ينظر كتاب" جدل التنوير" ماكس هوركهايمر، ثيودور ف.أدورنو، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، الطبعة الاولى 2006

نسيانه في شموليته، بل الأثر الأنطلوجي الحامل للكينونة وللحيوية التي تجعل الرغبة في تشييد اتصال مع الذاكرة مطلبا جوهريا. وهذا ما يجعل الكاتب إبراهيم أوحسين يقدر الذاكرة في نصه الموسوم ب" أما زالت سوس عالمة؟" . الكاتب لا يروم البحث عن الإجابة الواضحة، بل تأزيم كل الإجابات الممكنة وكشف عجزها لأننا على حد تعبير" ميري ورنوك" نحتاج ذاكرتنا ونستخدمها في كل جزء من حياتنا اليومية"[1]. وربما كانت هذه المرجعيات تكشف ضرورة تجاوز الهويات الكلية التي هيمنت في التصورات القديمة، واستبدالها بالهويات الجماعية ذات الصبغة المعيارية والتواصلية تبعا لتصور سليل مدرسة فرانكفورت يورغن هابرماس[2].

بصدد كتاب " البدائيّ الذي يسكننا " ندرك مع الكاتب إبراهيم أوحسين فسحة أنه لامناص من التفكير في الهوية وفي اللغة بعيدا عن الدلالات السطحية، وارتباطا بالعلاقة الجدلية بين اللغة والهوية،

---

(1) - ميري ورنوك" الأدب في الفلسفة والأدب، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006، ص6

(2)- يورغن هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر 1929 يعد من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر. ولد في دوسلدورف،ألمانيا وما زال يعيش بألمانيا.يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له ازيد من خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي.

والانخراط في التفكير في العلاقة التفاعلية بين اللغة والهوية باستحضار دورها في تحقيق التواصل.[1]

إن التفكير في هذه الأسئلة الحارقة التي يقدمها هذا الكتاب يقتضي مراعاة تحولات مفهوم الهوية رغم ما تتصف به اللغة كمكون ثابت نسبيا خلال مدة من الزمن، ارتباطا بالأبعاد التواصلية لهذه اللغة وطاقتها التعبيرية، بما يسمح لنا بالتمييز بين الهوية الشخصية الفردية حيث يعد اختلاف اللسان والأسلوب الشخصي دليلا على الهوية الفردية، والاختلاف المرتبط بما عبر عنه باختين بالتعدد اللغوي، بل إن اللغة هي التي تكتب من خلالنا وبواسطتنا على حد تعبير جيل دولوز.

وتقتضي اللغة التي وصفها ابن جني[2] في " خصائصه " بكونها أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، التفكير في اللغة وفي تماسكاتها المفاهيمية وأدوارها التداولية والتواصلية في سياق الانتماء والفاعلية على أمل الظفر ببعض الحلول للعلاقة بين اللغة والهوية في بعدها الأنطلوجي، بيد أن الصيغة الجديدة للهوية الثقافية تبعا لتصور

Habermas Jürgen ,la modernité ,un projet inachevé ,In ,critique ,N413 ,Octobre ,1991(1)

(2) - أبو الفتح عثمان بن جني المشهور بـ» ابن جني «عالم نحوي كبير، ولد بالموصل عام 322 هـ ت 392هـ، ونشأ وتعلم النحو فيها على يد أحمد بن محمد الموصلي الأخفش.

إبراهيم أوحسين فسحة تمثل الانتماء المشترك بين الفكر والوجود، وهي القادرة على كشف الكينونة كاختلاف خلاق وليس كتطابق سطحي. وهذه الرؤية المستمدة من تصور فلسفة مارتن هيدغر تذكرنا بقولة صاحب "الوجود والزمان" حين قال: لغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم، ومعالمه وتضاريسه ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع."[1]

ولا يمكن تحقق هذه المزية - تبعا لسياقات هذا الكتاب - إلا تجاوز التصورات التقليدية للهوية الثقافية والاعتراف بالآخر وبضرورة الحوار بدل الإقصاء، كشرط للحوار وخلق فن العيش لخلق هوية ذات بعد كوني تسمح بالاندماج والتسامح والاختلاف والتنوع، وهو ماعبر عنه بول ريكور بقوله: "احترام الآخر ليس من طبيعة مختلفة عن الاحترام الذي أبديه نحو الآخر لأن الإنسانية هي ما أحترمها في الآخر وفي ذاتي " [2].

هذه المرجعية تجعل الكاتب إبراهيم أوحسين أكثر حرصا في نبذ العنف والدعوة إلى التعايش والحوار، والانفتاح على الأنساق الثقافية

(1) - عبد الله البريدي اللغة هوية ناطقة، كتاب المجلة العربية، العدد197 ص 28

(2)- بول ريكور،الإنسان الخطاء،ترجمة عدنان نجيب الدين،المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء،2006،ص.290.

سواء منها التراثية الدينية والتاريخية، أو التراث الفكري والأدبي والفكري وهو ما يمكن رصده في حديث الكاتب إبراهيم أوحسين عن سوناتا " ضوء القمر" لبيتهوفن، ولوحة "الصرخة" لإدفارد مونش، ولوحة "التراجيديا" لبيكاسو، ولوحة "إلى أين نحن ذاهبون؟" لبول غوغان. وربما كانت هذه المرجعيات تكشف ضرورة تجاوز الهويات الكلية التي هيمنت في التصورات القديمة، واستبدالها بالهويات الجماعية ذات الصبغة المعيارية والتواصلية تبعا لتصور سليل مدرسة فرانكفورت يورغين هابرماس[1]،حيث اللغة من منظور تداولي تسمح بإعادة تشكل طابعها التواصلي ومراجعة الهوية انطلاقا من ربط اللغة بأخلاقيات التواصل، وربط الهوية بالواقع بدل المتعاليات السابقة، وتوثيق الصلة بين النظرية والممارسة بما يسمح بفك العزلة عن اللغة والهوية لصالح الهوية الإنسانية.

إن فن العيش يمكن عده تعبيرا أصيلا عن حيوية الفكر الإنساني وقدرته على التخلص من أوهام متعددة، تبعا لمنظور كاتبنا

(1)- يورغن هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر 1929 يعد من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر. ولد في دوسلدورف،ألمانيا وما زال يعيش بألمانيا.يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له ازيد من خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي.

إبراهيم أوحسين، حيث يرتبط التفكير بالواقع الاجتماعي بعيدا عن سطوة " الصناعة الثقافية" التي تفصح عبر مختلف تمظهراتها عن سمتها البرغماتي(1)، لذلك برزت الحاجة إلى التفكير بالتنوير في ممكنات الحياة كوسيلة لإعادة الاعتبار لفن العيش. وثراء المكان في هذا الكتاب لا يرتبط بثقله العاطفي فحسب، بل بممكناته بوصفه كاشفا صلة الوجود بالإنسان، وصلته بما تشكل في الماضي وما يعاد تشكيله عبر تخييل الذاكرة وهي تُمِدُّ الكاتب إبراهيم أوحسين بمنطلقاتٍ التفكير في آفاق رحبة، لتتشكل هوية المكان" سوس العالمة" بوصفه تحققا للانتماء المشترك، في منعطفاته تبدأ الحياة وإليها تؤوب. بيد أنه من الصعب معاودة كتابة تاريخ المكان كملحمة تشكلت في الماضي، لكونه ليس ميتافيزيقيا، ولا يخضع - في الآن نفسه- للتفسير العقلاني. والكتابة عن المكان بتعالقاته وأنساقه المختلفة مغامرة تتسم بقدر كبير من الغموض، وربما لهذا السبب كانت مهمة الكتابة عنه تشبه تعاليم الشاعر الإغريقي هِسْيُود Hesiod. ولايمكن النظر إلى السياسة والتصورات التقليدية للدين، والتنمية المستدامة، الديموقراطية والحرية إلا في ضوء تحقق حضورها كجزء من الهوية

Guy Debord: La Société du spectac. gallimard 1992(1)

الفاعلة التي تراهن على الإنسان تبعا لمنظور كاتبنا، ليس الآن فقط، بل كيصرورة. ووفق ذلك فالفرد يجد نفسه في مواجهة الواقع يحاوره ويجادله بصوت الذات بوصفها نتاج وعي فردي يستند على الجدل المشروط بسياقات مخصوصة.

ووفق هذه الرؤية يمكن القول إن الواقع بممكناته الأنطلوجية يتحول إلى تراث الذات. ولا يتوانى إبراهيم أوحسين في التفكير في الحياة وفق هذه المقترحات والمخرجات، بما يضمن تحرير الكائن من سلطة السياسي، وسطوة التصورات القديمة، وتحقيقا لتمثل المثالي للواقع ولممكناته التنموية. وكأننا أمام رؤية طوباوية تتسم بقدر كبير من الشاعرية التي تلزمنا الإنصات إلى الشعراء والتعلم منهم[(1)].

إن حضور "أمير الشعراء" أحمد شوقي وغيره من الشعراء الأصلاء يكشف حضور المرجعية الشعرية الجمالية، ورغبة الكاتب في تشييد فهم عميق بالحياة بواسطة لغة يتساوق في تشكيلها المعرفي والشعري كتجديد رؤيوي واضح و" إذا كانت اللغة تستلزم في تطورها تجديدًا مستمرًّا، فليس هناك من مصدر أفضل ولا أكثر عمقًا،

(1) Pierre Lauret, Gadamer lecteur de Paul Celan, in Cahiers Philosophiques N 95, 2003, PP35-48.

لتحقيق هذه الغاية من الشعر".[1] فالكائن طارئ على العالم، وأحد يعرف العالم على نحو مكتمل، لذلك فالشاعر بتعبير موريس بلانشو في اتصال دائم مع القوة الأكثر سموا. [2]

الكتاب يشيد منجزه الجمالي وفق مكوناته وسياقاته المخصوصة وقد ساهمت ما أسماه الكاتب بسرديات مجاورة في العبور إلى نهر هيراقليطس، ليتدفق المعنى مادام الكلام حركة فعلية على حد تعبير الفيلسوف مرلوبونتي. [3]

وسواء تعلق الأمر برواية " بائعة الكلمات"، لريمة راعي، أو" حرية وراء القضبان" لرندلى منصور، أو رواية " نزوة قابيل " لبلقيس الكبسي، فإن مقصدية الكاتب إبراهيم أوحسين لم تكن كشف بنيات وأنساق هذه الأعمال السردية الروائية فحسب، بل بين أن الرواية ينبغي أن تنسج متخيلها الخاص وأن لا تكون استنساخا لعوالم سردية

Ernst Cassirer, Essai sur l'homme, tr Norbert massa, éd Minuit, 1975, P316.(1)

Maurice Blanchot, l'itinéraire de Hölderlin, in L'espace littéraire, P568.(2)

(3) - موريس ميرلوبونتي (1908-1961) فيلسوف فرنسي تأثر بفينومينولوجيا هوسرل، من أهم كتبه بنية السلوك وفينومينولوجيا الإدراك، وقد بين في هذه الأعمال بطلان مطامح علم النفس في تأسيس ذاته كعلم. والنقد هنا ليس موجها فقط إلى علم النّفس بل إلى العلم بشكل عام بسبب نزوع هذا الأخير نحو تقديم فهم اختزالي وجاف للظواهر. ومهمة الفلسفة الفينومينولوجية، حسب ميرلوبونتي، تتمثل في تحقيق الرجوع إلى عالم الحياة الأصلي والبدئي وفي "العودة إلى الأشياء ذاتها."

مألوفة في المتن الروائي الغربي أو العربي، كما يؤشر الوعي النقدي لإبراهيم أوحسين على ضرورة وامتلاك رؤية عميقة للعالم ولمتخيل الكتابة والقدرة على تشكيل عوالم مكتملة تتسم بثراء المعنى والدهشة الجمالية، وخصوبة الإبدالات الدلالية. (1)

ويشير الكاتب في عمله إلى أنه ثمة طريقة لتكريس ثقافة الحوار والاعتراف بالآخر من خلال ما أسماه ب" شرفة الآخر" حيث إثارة الأسئلة موازية للتفكير في التنوير بموجب حركية السؤال وفاعليته، خاصة وأنه كشف مع الأكاديمي الرفيع الدكتور عبد الرحمن التمارة[2] وظيفة النقد، ودور الناقد بوصفه القادر على إنتاج خطاب نقدي متسم بالفعالية العلمية، وعلى تحقيق إنتاجية معرفية بأفق تنويري، وثراء المتخيل الإنساني في حوار الكاتب مع الأديبة المصرية داليا الحديدي، وأهمية الإدراك الحسي في تشكيل العوالم السردية، وفاعلية الحبكة لدى الروائية رندلى منصور.

(1) ينظر كتاب:" ندوة الرواية العربية والنقد" مجموعة من الباحثين، الدار العربية ناشرون، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2010

(2) ينظر كتاب" نقد النقد بين التصور المنهجي والإنجاز النص، للدكتور عبد الرحمان التمارة، دار كنوز المعرفة، عمان،الأردن، الطبعة الأولى 2017

لا مراء في أن المجالات التي عمل الكاتب إبراهيم أوحسين على دراساتها تكشف طبيعة مرجعياته النقدية والجمالية، سواء تعلق الأمر بمختلف المواضيع التي يثيرها الكتاب، أو قضاياه النقدية والاجتماعية من منهج القراءة الذي يمكن القول إنه يتبنى منظور النقد الثقافي في أنساقه وإشكالياته، فضلا عن مقاصده بنضج فكري، ورؤية منهجية تراهن على نسبية التمثل وتعدد ممكنات القراءة والتأويل. وفي تقديري فقد كتب إبراهيم أوحسين هذا العمل بكثير من الحب، بما يذكرنا بتعبير بول ريكور في كتابه "الحب والعدالة": "الحديث عن الحب أمر سهل جدا أو قل إنه أمر صعب جدا".[1]

(1) بول ريكور" الحب والعدالة" ترجمة وتقديم وتعليق حسن الطالب، مراجعة وتقديم،د. جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان الطبعة الأولى 2013، ص،24

استهلال

كتب الفيلسوف والمصلح الأمريكي ستيوارت تشيس قائلا: " لما كنت في سن الشباب أحاول الإصلاح، أخذت أنظم الاجتماعات، وأكتب النشرات، وألقي المحاضرات، وأرسم الخطط، وأنشر الدعاية على نطاق واسع في حماسة حارة؛ لكن رجائي قد خاب، حين نظرت فوجدت أن الناس مازالوا على حالهم، لم يتحولوا قيد أنملة عما كانوا عليه حين بدأت حملتي !"؛ والحق أن حالَ تشيس ذاك حالُ كل امرئ يربطه نسب واشجٌ بالقلم وبالورق، ساعيا _ من حيث يقصد أو لا يقصد _ إلى تغيير فُهوم القرّاء وأفكارهم وقناعاتهم بما يوائم نظرته الذاتية للعالم من حوله؛ أو على الأقل _ حال تعذّر التغيير الشامل _ كشفه عن رأيه إزاء القضايا العامة المشتركة المستهلكة، أو إزاء ما يجده ثاوياً في بواطنه النفسية وما يتخالج في الصدر، حينئذ يكون كمن ساهم في السيرورة الفكرية والأدبية كما ساهم الآخرون أترابُه، دون الرّقيّ إلى مصاف المُلهِمين والمؤثرين؛ إنما الكاتب من لا يشتغل بمنطق المُصلح أو التنويري الذي ينتظر نتيجة في سلوك الناس وتفاعلاتهم الاجتماعية، بل يقف عند حدود إلقاء كلمته على المسامع

أو مسطَّرةً على ورق، دون انتظار ردّ فعل _ سلباً أو إيجاباً_ من هنا أو هنالك، فذلك يجنّبه بلا شك السقوط في وَهْدات الغربة الزمنية والمكانية، وفي اعتزالية تتحول مع تراكم الأيام إلى طقس من طقوس الحياة المقدسة، ولنا في المتنبي مثال فاقع حين اشتكى قائلا:

أنا في أمَّةٍ تداركَها اللَّـــــ// ـــــهُ، غريبٌ كصالح في ثَمودِ

ما مُقـامي بأرضِ نخلة إلا // كمقـــــامِ المسيحِ بين اليهودِ

أو قـول المعرّيّ:

فما للفتى إلاّ انفرادٌ ووحدةٌ // إذا هو لمْ يُرزقْ بُلوغَ المآربِ

ولا يَحْسُن بالكاتب كذلك في نظري الوقوف على أبواب المُمانعة والمقاومة ومجاهدة بنات أقلام الآخرين، والسعي إلى هدمها ونقضها من باب إبراز قوة الحجة والبرهان، أو من باب إظهار ضعف الخصم وصَغَارِهِ وجهله، والدخول في معارك ضارية في قضايا لا تحتاج كلّ ما يُنفق عليها من تلاسُنٍ وتراشُقٍ باللفظ، وفي كتاب أنور الجندي " المعارك الأدبية في مصر منذ 1939/1914 " غُنْيَةٌ لمن أراد بعضَ تفصيل. في حين إذا اتخذت الكتابة مسار الإبانة عن الرأي، أدبيا كان أو أكاديميا، شعرا كان أو نثرا، أو التنبيه إلى حيف أو ظلم تَنَفَّطَ به كاهل فرد أو جماعة، أو تنوير العامّة بما يجعلهم مقبلين على الحضارة

الفكرية والثقافية، بغية نبذ العنف الاجتماعي والسياسي، وكبح التطرف الديني، ونشر القيم الإنسانية السّمحة، أو استهدفت في أبسط أحوالها إمتاع القارئ ومؤانسته بلطائفها وطرائفها؛ كل هذا يجعل الكتابة تنخرط بالفعل في سيرورة الإنسان الحياتية، مهتمة حقا بهمّه، ساعيةً في جعله أرقى الكائنات الحية على وجه البسيطة.

من ذلكم المنطلق البسيط، جاء هذا الكتاب الموسوم ب " البدائيُّ الذي يسكُنُنا "،إشارةً إلى مقال بعينه فرضتهُ ظرفية خاصة أذاقت البشرية الوجعَ والألمَ مشرقا ومغربا حتى استحالت كائنا مُعَطَّلَ الحواسّ... أما متن الكتاب فمُجمَلٌ في مقالات تعددت مواضيعها ومشاربها، وبضع قراءات في روايات وحوارات اقُترحت عليّ من لدن الهيئة الثقافية لصحيفة المثقف الأسترالية، فتداخلَتْ _ كما ترى _ في المشيئة والاختيار والذوق الأدبي مشيئاتٌ أُخَرُ، وهذه طبيعة الاشتغال بالأدب مُشتبكاً بالمجال الإعلامي والصحفي، إذ يكاد العمل فيه جملة يخضع لسياسة ومنطق " ما يطلبه المشاهدون !"؛ مع التنويه أحيانا باختيارات الهيئة التي أصابت التوفيق في أحايين كثيرة، بالغةً المرام تحت ما سُطِّرَ لها من أهداف. أما المقالات _ المنشورة في منابر أدبية عدة _ فلكل واحدة منها أسباب نزول انفردَت بها، ولم تكن لأحد يدٌ في اختيار مواضيعها، إلا ما كان من المجتمع وتدافعاته

الداخلية،ومن الوقائع اليومية الحبلى بالمتغيرات والتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها المعروفة لدى القاصي والداني والعالِم والعامّيِ،دون الحاجة إلى توضيح ولا إلى كثير معرفةٍ؛ ولقد أتاح الفضاء السيبريّ للجميع النّهلَ من المعارف باختلافها وتعددها، كما أتاح لهم الاطلاع على المستور والمخفيِّ، حتى غدونا في زمن تساوى فيه _ في الخبر _ وزيرٌ في سُدَّة حكمه وراعٍ يرعى غُنيماته في سفوح الجبال، ولله درّ عَدِيّ بن الرِّقاع قائلا:

عرفَ الدّيارَ توهُّماً فاعتادَها // من بعد ما شمِلَ البِلَى أبْلادَها

وعلمتُ حتى ما أُسائلُ عالِماً // عن عِلْمِ واحدةٍ لكي أزْدادَها

ودرّ الحطيئة منشدا:

أنا ابنُ بَجْدَتِها عِلمًا وتجربةً // فَسَلْ بِسَعْدٍ تَجِدْني أعْلَمَ النّاسِ

هي بدايات صغيرة خُطّت منذ سنوات _ إلا مقالة "البدائيّ الذي يسكننا"_،ولكل امرئ بداية بحجم فهمه وقراءاته،وحجم تفاعله مع قضايا المجتمع صغيرها وعظيمها، وهي المنطلق إلى ما يليها لبلوغ النهايات، فلا دخان بلا نار،ولا فعل بلا فاعل، ولا وصول بلا انطلاق، ولا جيشَ بلا مسمارِ حذوة حصان !

فاللهَ اسألُ التوفيق والسداد، راجيا بلوغ حروفي هاته مبلغها في وجدان المتلقي كيفما كان وأينما كان، مع يقيني الكامل بأنها أمام ما يكتبه الكبار لا تُشفي علّةً ولا تَنقَعُ غُلَّةً كما يقال، وحسبُ ابن اللبونِ(ابن الناقة) يوما أن تكون له صولات وجولات في ساحِ الحرف والمعنى، وإن قال جرير:

وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ // لم يَسْتَطِعْ صوْلَةَ البُزْلِ القَناعيسِ

أما وإن اختار ذيّاك المتلقي مسلك النقد والاعتراض على ماجاء في ثنايا الحروف هاته، من باب تورُّطه _ ربما _ بحَشَفٍ وسوء كِيلَة كما يقول العرب، أو بِسَفَطٍ مُلِئَ بالفاسد والرّخيص،فحسْبُ نقده أن يكون متلطّفا، بتعبير العلاّمة الطاهر بن عاشور، كإبر النحل دون الشّهْد.

و بإذنه تعالى تتم الصالحات.

إبراهيم أوحسين

الخامس والعشرون من دجنبر / كانون الأول 2018

قصبة الطاهر (هامش من هوامش أكادير)

المملكة المغربية

الهوية الثقافية

أ مازالت سوسُ عالِمةً؟

أ ثمة داع حقيقي لهذا السؤال، أم أن الإجابة لائحة بقرونها وواضحة للمهتم ولغير المهتم على السواء؟ أمازال في سوس[1] ما يؤكد هويتها العلمية والمعرفية كما كانت أمس؟

مع آخر سطر وضعه العلامة محمد المختار السوسي في موسوعته السِّيَرِيّة الموسومة ب "رجالات العلم العربي في سوس"، وقبل أن يشرعِ في كتابه الأشهر " سوس العالمة "؛ يبدو أنه كان ينوي بسبق إصرار وترصّد دمغ منطقة سوس بصفة العلمية ووضع هذا التاج النفيس على رأسها، والتسمية سلطة كما قال نيتشه؛ فكان له حقا ما أراد وهو في قفرِ منفاه بقرية " إليغ "، خصوصا بعد كتابه الثاني المذكور، الذي جعل سوس تعرف إلى يوم الناس هذا بالعالمة. فكان حقا الابن البارّ بالأرض وبذاكرتها، كيف لا وهو القائل في مختتم موسوعته المذكورة: "لا يمكن أن يُعرف تاريخ سوس إلا من أفواه بنيه، ومن خزائنهم وكراريسهم وكنانيشهم."

(1) - سوس: ذكر الحسن العبادي في كتابه "فقه النوازل في بلاد سوس" في الصفحة 15 قوله:" وقد ظل اسم سوس يطلق على المنطقة التي حددتها مجموعة من المصادر التي ذكرناها منذ بداية العهد العلوي حتى الآن، وهي ما خلف الأطلس الكبير جنوبا إلى الصحراء، ومن المحيط الأطلسي إلى وادي درعة شرقا".

في تعداده لسِيَرِ العلماء السوسيين بين القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، ذكر المؤلِّف ما ينيف عن ثمان مئة وألفِ ترجمة، شملت أولئك المشاهير الذين سارت بمناقبهم وبجهودهم العلمية الرُّكبان، وتداولتها الألسن في كل منتدى ومجمع، وبهذا يكون _ منطقيا_ العدد أكبر مما أوردته الموسوعة إذا تم استحضار المشهور وغير المشهور. هكذا، أمكن المختارَ رفعُ هذه الرقعة من البلاد إلى مقام مدينة فاس، صاحبة القرويين، والحاضرة العلمية في المغرب الأقصى منذ أمد بعيد، وجعلها سوسًا عالمة. وقد نقبل من حيث المبدأ هذا الكمّ بمجموعه دون توزيعه مُعَدَّليّا على مدى تسعة قرون، كي لا نسقط في معدلات ضئيلة، لكن، إذا ما تم تعداد عدد المتخرجين على يد أولئكم، وهم في الغالب بالمئات، على أقل تقدير،ستكون المحصّلة إذن عددا لا بأس به من ذوي الحظوة العلمية، مادام علم العالِم يُفترض نقل جُلِّه إلى حافظة المتعلّم وإلى دفاتره.فهل كنا إذن نتحدث عن سوس عالمة أم عن سوس "متعلّمة"؟

يفضي بنا هذا السؤال بقوة المنطق إلى التساؤل عن تعريف العالِم في عُرف المختار السوسي، أو على الأقل في عرف مُجايليه وجيل من سبقهم، فنجد العالِم مَن جمع حصيلة هامة من علم الفقه وعلم الكلام وعلم الأصول وعلم الحديث والسيرة وعلوم اللغة وعلم

القراءات وعلم البيان، أي ما يسعف المهتم بالعلوم الدينية بشكل خاص، بالرغم من أن المختار قد عَدَّدَ واحدا وعشرين علما تعاطاها السوسيون، تضم المذكورة إلى جانب علم المنطق وعلم الحساب وعلم الهيئة (الفلك) وعلم الجداول (التنجيم) والطب وغيرها مما لا يُهتم به إلا من قلّة. فيكون العالِم هو نفسه عالم الدين، القادر على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها والقادر على الاجتهاد في مسائل فرعية لم ترد فيها نصوص قطعية الدلالة، وقد أورد الشوكاني في " إرشاد الفحول"، وابن عثيمين في " الأصول من علم الأصول" شروطا لبلوغ مرتبة العالِم والفقيه والمجتهد لا يسع المقام لذكرها. أما العالِم في التعريف المعاصر فغالبا ما يرتبط بالتخصص في مجال ما، فنقول عالم اقتصاد وعالم رياضيات وهكذا، بغض النظر عن "الموسوعي"، أو متعدد المعارف، وأمثال أولئكم قلة على كل حال. فالعلم السوسي كان علما دينيا إجمالا، بل، وكان حامله مبعث فخر واعتزاز وذا حظوة اجتماعية كبيرة، ولا أدل من هذا إلا قول القائل:

إذا ما اعتزَّ ذو علمٍ بعلمٍ == فعلمُ الفقه أولى باعتزازِ

فكم طيبٍ يطيبُ ولا كمِسكٍ == وكم طيرٍ يطيرُ ولا كَبَازِ

إن مجرد التطلع إلى أبجديات هذا العلم يجعل المتعلّم يقترب من درجة العالم، قبل إجازته بشكل نهائي من قِبل شيوخه، وقد يُنعت المرء بالفقيه لمجرد كونه متتلمذا على يد شيخ معروف في مدرسة قبيلة ما، ولقد وجدنا آباءنا وأجدادنا حقا ينعتون مجرد من يؤمهم في صلواتهم الخمس بالفقيه، وبالعالم أحيانا !!

لا يهمنا تحديدا بأي العلوم اهتم رجالات سوس أو مقدار أهميتها بقدر ما يهمنا السؤال المطروح برأس الكلام: أ مازالت سوس عالمةً على شرط تعريف العالم في زمن المختار السوسي (ق الرابع عشر الهجري)، أم أن هذا "النعت" القديم واللقب الموروث لم تعد له أي صفة وجود في ظل ما نحياه اليوم؟ ولعلنا قبل الحديث عما يحيط بنا الآن، سنعيد الزمن خلْفاً لنستقصي حال سوس في زمن "المختار"، لنفهم تلقائيا الوضع بُعيد زمنه، أي في زمننا نحن. ومما يثير العجب حقا، أن نجد الكاتب ذاته في كتابه "سوس العالمة " متذمرا ومتحسرا مما آلت إليه الأوضاع العلمية والفكرية السوسية، خاصة أمام قلة وندرة من ينبرون لحمل مشعل التنوير بعد الأولين من الجهابذة، وهو القائل:"... لم يبق الآن من وراء الفقهاء الفطاحل ممن يسدون مسدّهم إلا القليل جدا جدا... ولكن الدراسة الفقهية من سوس في الغرغرة، لإقفار المدارس، وانطواء الهمم، وفتور العزائم، لما دب إلى مجموع قوى الأمة

من الانحلال تحت هذا الاحتلال"؛ ومن اللافت أيضا قوله بعد صفحات يسيرة من القيل السابق:"...تأثرت مجالس دراسة العلوم غاية التأثر، فلم تدخل سنوات 1350 هـ حتى لا تكاد تجد مدرسة عامرة العمارة المعهودة. فلا ترى إلا البعض يكون فيها عشرة إلى عشرين أو دون العشرة... وقد أقفلت أبواب الدراسة الجدّية، ولا يُرابط الأساتذة اليوم غالبا في المدارس، وقد يمضي أسبوع فشهر من غير معطاة دروس...حقيقة والله مؤلمة ". يبدو جليا من شكوى الكاتب أن عصره لم يكن ذلك العصر الذهبي الذي فقد بريقه ولمعانه، بسبب الاحتلال الفرنسي والأسباني آنئذ، وما ترتب عنه من تدهور عَمَّ جميع مجالات ومفاصل الحياة، وهو السبب الأقوى لا محالة، إذ لم يزد المختار على الاحتلال سببا آخر، والحق أن الاستعمار _ وهو استخراب حقيقة _ كفى به أمًّا للكوارث وللمصائب وللملمّات، وحُقَّ للمختار في معرض شكواه الاستشهاد ببيت الأول القائل:

إن دامَ هذا ولم يحدُثْ له غِيَرٌ === لم يُبْكَ مَيْتٌ ولم يُفْرَحْ بِمَوْلودِ.

إذا كان هذا حال سوس في القرن الرابع عشر الهجري، فكيف صار حالها الآن، في ظل الاستقلال والاستقرار، أي بعد قرن من الزمن؟

إن البحث في راهن سوس العلمي لهو البحث تماما ومباشرة عما يربط ماضيها بحاضرها، والمقصود، عما أصبحت المدارس العتيقة تؤديه من أدوار، الموضوع الذي أشار إليه المهدي السعيدي في كتابه "المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي: المدرسة الإلغية بسوس نموذجا"، متتبعا تطور المسيرة التعليمية منذ مهد الفتح الإسلامي إلى عهد العلويين،ومركزا على ما كانت توليه الدول المتعاقبة على حكم المغرب من عناية واهتمام بهذا النمط من التعليم التقليدي الأصيل

(رباطات،زوايا،مدارس،مساجد..)، سواء على شكل عطايا أو ظهائر التوقير والاحترام أو على شكل وظائف مخزنية يُتبرع بها.لكن ومع هذا الإشعاع كله قديما وحديثا، ينبغي الاعتراف بتراجع المهتمين بهذا القطاع التعليمي، سواء على المستوى المجتمعي أو على المستوى الرسمي، لحساب التعليم النظامي الذي يوفر الحد الأدنى مما يمكن أن يكون زادا لولوج سوق العمل، بالرغم من جهود الدولة الخجولة لتحديث هذا القطاع وجعله معصرنا ومتحررا من جلابيب التقليد، من خلال جعله مطابقا إلى حد بعيد للرسميّ شكلا ومضمونا؛ جهود وتحديثات لم تكن لتغري الأجيال المتلاحقة التي دخلت عصر الرقمنة وعصر المعرفة العلمية.

إن انحسار المدارس العتيقة في الجغرافية القروية القصيّة، واعتمادها برامج تربوية ذات محتويات عتيقة متجاوزة لم تواكب متطلبات سوق الشغل بشكل كاف، ضيّق في الحقيقة على المتخرجين آفاق ما بعد التخرج، إضافة إلى ضعف الإعانات المقدمة إليها رسميا وتطوعيا،جعل عددها يتراجع في المغرب(388 مدرسة سنة 2013 مقابل 476 سنة 2012)، وجعل دائرة الاهتمام بها تضيق سنة بعد سنة، إذ تَقَوَّت اشتراطات الواقع وافتراضاته أمام معطيات الدين والهوية والذاكرة، فكان أن أُشرعت أبواب الهجرة منها إلى أخواتها النظامية العصرية التي تلامس مخرجاتها_ إلى حد ما_ مدخلات السوق.

الواقع سيد الزمان والمكان، ولا ينبغي إيهام النفس والوجدان بمغريات الماضي وبأمجاده التي لم يبق منها غير أطلال منسية ندغدغ بها ذاكراتنا أحيانا، وإذا كنا نفتخر بسوسٍ عالمة زمنا ما، فلا نستطيع اليوم الجزم، بكونها قادرة على مواصلة ريادة الأمس وأمجاده، في ظل ما يحيق بها من متغيرات في واقع جديد.

أجساد أطفال وعقول فلاسفة !!

عالم الطفل الصغير كما نتداول دوما صغير على قدر حجم الطفل وعلى قدر أبعاده الطولية والعرضية. بل والبعض يتحدث عن حجم الدماغ وارتباطه الاطرادي بالنضج العقلي والنفسي. وهذا ما تدحضه طبعا بعض حالات التأخر العقلي والاضطراب النفسي، وإن كان الدماغ دماغ راشد مكتمل الجسد .

إن النظرة الميكانيكية المباشرة هذه غير المرنة والضيقة تجعلنا أحيانا نغمط حقوق " الصغير"، بل وتجعلنا نهدم عالمه الواسع من حيث ندري أو من حيث لا ندري، وذلك بأحكامنا غير الواعية والناقصة في أغلب الأحيان، في حين أن المنطق يقتضي على الأقل أن نجعل أنفسنا في أحجامهم ومستوياتهم النفسية والعقلية إن كان التقزيم البيولوجي مستحيلا،وذلك كلما انبرينا – نحن الكبار – لمخاطبته ولمحاورته، أو بالذات، حين نقصفه بوابل من الأوامر والنواهي وبلا هوادة !!

إن كنت ناسيا شيئا فلست أنسى أحد الصغار، وهو على الأرجح في الثامنة من عمره، حين استفسرني حول عبارة " طول العمر يصنع

الحكمة ". سألته حينها عن معنى الحكمة، فأجابني جوابا مباشرا: إنها الأعمال الجيدة . ولم يزد على هذا القول على ما أذكر.

لم أتساءل حينئذ عن مصدر القولة هاته، ولم أعتبره ببغاء ناقلا للكلام وكفى، لكنني تساءلت، لماذا هذه العبارة بالذات دون آلاف العبارات التي تستدخلها الأذن وتستوقفها الذاكرة؟!

طبعا، لن أبالغ وأقول أن " الصغير المتسائل" مدرك إدراكا جيدا تفريعات الحكمة وتقسيمات الفلسفة عموما إلى قضايا الخير والحق والجمال، ولن أغامر بالقول كذلك أن مداركه ومعرفته البسيطة قادرة على استحضار كل ما تنطوي عليه العبارة من معان وحقائق، فالحفظ عن ظهر قلب كما أكد "ميشيل دي مونتين" لا يعني المعرفة. لكني مع ذلك لا يسعني أن أرفع تحية تقدير لهذا " الفيلسوف الصغير"،كونه على الأقل استفسر عما لا يستفسر عنه أقرانه على سبيل العادة.

دريد لحام،الفنان السوري كتب ذات مرة يقول: " عقل الطفل أكبر من عقل الرجل، لكن الطفل تخونه اللغة "، طبعا هذا القول يضرب نتائج العديد من النظريات التربوية النفسية عرض الحائط، وهي التي تؤكد جملة أن الأطفال بين سبع سنوات وثنتي عشرة سنة

يحاولون الاستدلال المنطقي،لكن في حدود المحسوس والملموس، وكل تفكير "مارق" يخرج عن النطاق المحدد بالحسية، إنما هو رهان معرض في أفضل الحالات إلى الفشل!!

قد نحترم وجهات النظر هاته، فالأزمنة التي أفرزتها والظروف العلمية التي أنشأتها لها أيضا اليد الطولى على نتائجها،وكذا القوانين التربوية التي أسستها وعممتها. بيد أننا لسنا مطالبين بالتسليم بكل ما أورده التاريخ، إذا كان " الصغار" قد أثبتوا العكس، واستطاعوا تحطيم الأوهام الموروثة، كما حطم الطب النفسي الحديث أزعومات النمساوي "سيغموند فرويد" بتشكيل شخصية الإنسان الكاملة في السنوات الخمس الأولى من عمره، ومن فاتته هذه الخمس فسيعجز حتما عن إعادة هيكلة شخصيته مهما صنع !! وكذا مبالغات معامل (IQ) الذكاء، أقصد تصنيف "وكسلر" المعروف لذكاء الأطفال.

وإن أردنا تعضيد كلام " دريد" توسلنا مقولة عالم النفس الإنجليزي " هادفيلد" الذي كتب يقول: " الطفل في الثانية عالم، وفي الرابعة فيلسوف ". كلام ثري يصب فيما نؤسس له من وجهة نظر تنصف عالم الصغار الذي ما فتئ الكبار يدوسونه بأحذيتهم السميكة، دون وقفة جدية ورصينة أمام عالم يحفل بالأعاجيب.

لم يزل العلم منكبا على سبر أغوار فضاء الطفل بتجريب النظريات والحقائق الواحدة تلو الأخرى، ولم يزل كذلك يكتشف في كل مرة أشكالا من المعرفة الجديدة التي لم تَبْدُ لعيان القدماء من المنظرين والتخصصين، فالعلم كما قال الفرنسي "أوغست كونت" يستوعب كل الظواهر الكونية ما عدا الإنسان، كون النفس الإنسانية أصعب شيء يمكن أن تحيطه وتدرسه كما عبر عن ذلك الفرنسي "ميشل دي مونتين"،و الألماني "يوهان فيشته" بقوله: " العالم والكون مجموعة من القوانين الحتمية، سوى الإنسان الذي يعتبر عالما من الحرية". فإذن، إذا كان طرح السؤال من اختصاص الفلاسفة والمفكرين، فلا شك أن كل طفل يستحق أن يرتدي عباءة فيلسوف، إذ لا تفتأ حنجرته تفصح عن كل التساؤلات والإشكالات التي تطوق وتشغل فكره الشاسع وخياله الجامح. فتاريخ العلم والمعرفة الإنسانيتين ما هو إلا تاريخ أسئلة طرحتها عقول متحررة تواقة إلى الانعتاق من ربقة الغموض واللبس والظلام، وكما قال "علي عزت بغوفيتش": "لا يسمع الجواب إلا من طرح السؤال".

فيا أيها الكبار، إنكم أمام فلاسفة بأحجام صغيرة، أنصتوا لما يدور في خلدهم واهتموا بتشغيباتهم المدهشة، وكونوا متواضعين وخذوا الحكمة من أفواههم، وكما صدح بها فيلسوف الأنوار " ج ج

روسو " قبل زهاء ثلاثة قرون أقول: " اعرفوا أطفالكم فإنكم حتما لا تعرفونهم !! ".

التعليم الجامعي: تعليم أم تعذيب؟

كتب أدولف هتلر في كتابه كفاحي، متقمّصا دور التربوي الحاذق: " إن الطفل في المدرسة يجب أن يتعلم أن يكون صامتا، ليس فقط عندما يوجَّه إليه اللوم حقا، بل عليه أن يتعلم أيضا_ إذا دعت الضرورة _ تحمُّل الظلم في صمت". وإذا كانت هذه التعاليم مقبولة_ بوجه ما _ في عُرف النازيين، وفي قوانينهم الداخلية المؤسَّسَة على الطاعة الفورية العمياء، فلا يُستغرب أن يقتعد هذا المنطق لنفسه مكانا له كذلك داخل قاعات الدرس الجامعية، خصوصا فيما يرتبط بمسالك العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية بمختلف فروعها.

إن الحديث عن الطالب في علاقته العمودية بأستاذه، لهو الحديث تماما عن علاقة السجين بسجَّانه_ طبعا مع وجود فارق شاسع في المقامات_، فلا يسع السجين أمام سجانه إلا السمع والطاعة، ووضع الأوامر في حيز التطبيق، حذْوَ النعل بالنعل كما يقال، مع قطع الطريق أمام كل احتمالِ اجتهادٍ أو إبداء رأي أو مفاجأة الآمِرِ بما لا يُنتظر من المأمور.هكذا، غدت الجامعة وستغدو آلة لتنميط الطالب، ومصنعا لإنتاج كائنات لا تملك من أمرها لا حولا ولا قوة؛ بل إن وظيفتها الرسمية طوال مسارها الجامعي، ردّ واسترجاع ما

تسلّمته من " بضائع" معرفية، وبسطها على أوراق الاختبارات، بتفاصيلها المملة، التي تبلغ _ أحيانا _ حد استرداد ما شُحنت به مَلازمُ المحاضرات والدروس، مع الاحتفاظ، بكل أمانة، بنفس التعابير وبنفس المعاني وبنفس علامات الترقيم إذا اقتضى الأمر ذلك !!

قبل عقود من الزمن، وتحديدا في سنة 1975،تحدث الفرنسي ميشيل فوكو في كتابه الشهير "المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن"، شارحا آلية مراقبة وضبط الأنظمة والدول التوتاليتارية (الشمولية) مواطنيها وجماهيرها العريضة، دون الالتجاء إلى جيوش جرارة وإلى بنادق ودبابات؛ ضاربا المثال بالمؤسسات الرسمية (السجن، المدرسة، المستشفى...) وكيف تفرض نُظُما سلطوية خاصة بها، تُدَجن بها، من جانب، مرتاديها جاعلة إياهم على الدرجة نفسها من الخضوع ومن الالتزام بسلوك موحد في القول وفي الفعل، ومن جانب آخر، لتضمن مراقبة شاملة لكياناتهم بما تبسطه عليهم من سيطرة شبه مطلقة. ومن هنا تبدأ عملية مصادرة مكنونات العقل عبر المؤسسات التربوية _ موضوع اهتمامنا_ التي لا تكاد تخلو شعاراتها المرفوعة والمعلنة من الدعوة إلى التحرر وإلى الإبداع وإلى التغيير والتجديد. فكأنما بإفراغ الفكر من كل جديد وكل دخيل تكون المؤسسة قد بلغت المرام في رسم حدود المعرفة والفكر التي يحرم على الطالب الاقتراب منها، تحت

مسمى "التأطير" المنهجي و"المواكبة " البحثية، في حين، لم تكن المؤسسة هاته في الحقيقة إلا مُمعنة وماضية في سجن طلابها عبر ما يفرضه الأساتذة من كبح الفكر والمخيلة، ومنع العقل من السياحة في المعرفة البشرية المنداحة والمتغيرة، مخافة السقوط في ما لا يُتحكّم فيه، وفيما لا يدخل ضمن مساحة وحيز المسبح الذي يجيد الأستاذ السباحة فيها، مما يُحرجِ هذا الأخير ويجعله موضع استصغار وسخرية أحيانا. لهذا كان الحل لتجاوز هذه المواقف غير اللائقة بصاحب كرسي الأستاذية وبذي الحظوة التربوية، فرض سياسة "التغذية الراجعة " على جحافل الطلاب، مهما تباينت تخصصاتهم واختلفت درجاتهم، إذ لا يجوز لهؤلاء الطلاب مهما اتسعت آفاق مداركهم ومناظيرهم المعرفية، رؤية ما لم يره الأستاذ والتفكير فيما لم يحالفه الحظ في التفكير فيه، وكأننا أمام فرعون جديد يقول لمن أمامه:﴿ لا أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ (غافر 29). وهل من سبيل أفضل وأكثر راحة من سبيل عُطِّلت فيها ملكات التفكير ومُجِّدت فيها الأساليب الببغائية المعتمدة على الاستظهار الدوغمائي والاسترجاع الميكانيكي للمعلومات المحفوظة، دون إعمال مشارط النقد والتمحيص والتحقيق فيها؟

إن الاهتمام المفرط بالتحفيظ وبشحن الذاكرة مقابل النقد والتحليل والتفكيك، ما جرّ الويلات حقيقة على الأنظمة التعليمية من أساسها إلى قمتها؛ ما جعل الطلاب، وسط هذه الدوامة من الخضوع، في سعي دائم إلى استجماع وحصد كل ما يمكن حصاده من النقاط ومن العلامات الضامنة للتفوق وللنجاح_ بكل الوسائل الميكيافيلية المتاحة_، مادام الفشل الدراسي مرتبطا بضعف القدرة على استرجاع المعلومة، وإن كان مَرَدُّ هذا الضعف أحيانا إلى دواعٍ بيولوجية. الأمر الذي جعل مخرجات الجامعة من حيث الكيف والتحصيل المهاري هزيلة ومخجلة للأسف؛فالأنظمة الآلية في آخر المطاف،كما قال الفيلسوف جون بودريار،لا تنتج إلا آلات!!

إن صناعة " الحافظ " لم يعد مقبولا في راهن زمننا، وإن كان ذلك مُلِحًّا في زمن عُدِمت فيه الحواسيب ورقائق الذاكرة الاصطناعية؛ ولسنا في حاجة الآن إلى أمثال الحافظ بن حجر العسقلاني والحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير وآخرين ممن عُرفوا بقوة الحافظة وبسرعة التذكر بنسبة تفوق قدرة الإنسان العادي. هنا لا نصادر قول المختصين القائلين إن عملية التحفيظ تنشط التفاعلات الدماغية وتقوي الذاكرة، لكننا نؤكد لهم أن التفاعلات تلك تتحفز أكثر بالتفكير وبالتحليل وبالتأمل وبالتخيل،عمليات عقلية تبقى أهم بكثير

من مجرد تعبئة الذاكرة بكمّ من المعلومات، والموضوع على كل حال فصّلت فيه بإسهاب عالمة الأعصاب البريطانية سوزان غرينفيلد في كتابها "تغيّر العقل"؛ ومن الطريف، أن الفيزيائي ألبرت أينشتاين سئل ذات مرة عن سرعة الصوت، فكانت إجابته:" هذه المعلومة لا أتحفَّظها، لأنها مكتوبة في الكتب"، وأردف قائلا: " إن قيمة التعليم الجامعي لا تكون بتعلم الكثير من الحقائق، بل بتدريب العقل على التفكير"؛ وهو ما أشارت إليه غرينفيلد في أطروحتها تماما، بل، هي الفكرة الأساس التي تبنتها الأنظمة التعليمية الرائدة عالميا، وجعلتها من غاياتها العليا، بعد تفكير عميق _ بالضرورة_ في جدوائية تقييم سعة ذاكرة الطالب، وقدرته على ترصيف المعلومات بالتفصيل الممل، دون إيلاء الأهمية القصوى للكفايات العقلية الأخرى.

إذا تم إذن استهجان التعليم المؤسَّس على ترديد المحفوظ عصبيا (بيولوجيا) وتربويا، فليس من المستغرب حقا أن تكون الفلسفة أيضا، ومنذ القدم، رافضة "استعباد" الكائن البشري بأي شكل من الأشكال، خصوصا ما يقترب من الاستعباد العقلي ومن الوصاية الفكرية؛ أي ما يتناقض تماما مع قيم الحرية ومعاني التربية على الاختيار الذاتي. ومادامت الحياة نفسها دأباً دائما على كسر النمطية والقولبة والنموذج والثابت أمام مجبولية العقل على حب

الاكتشاف والاستطلاع، والتطلع المستمر إلى ارتياد آفاق المجهول والغامض والمُلغَّز؛ فمن غير المنطقي إذن أن يصير التعليم _ الجامعي خاصة _ أداة لتكريس العبودية والامتثال للسلطة والانصياع للحدود. وبهذا الصدد،كم جادل الفيلسوف بول فيرباند في كتابه " ضد المنهج"، مؤكدا أن العلم والمعرفة مسيرتان لا تخضعان للسلطة وليسا شيئا يمكن ضبطه بقواعد حاكمة. وهذا ماكس هوركايمر في كتابه "كسوف العقل" يلفّ لفَّ فيرباند قائلا:" كل عقل يفقد استقلاله يفقد قدرته على العمل، ولايبقى منه إلا الوظائف الإجرائية، التي تسمح بالسيطرة على الطبيعة وعلى المجتمع.".

إن الاهتمام بالعقل في التعليم كما قال نيتشه، ما جعل أوربا كما هي عليه الآن، والاهتمام بالعقل في نظرنا يعني بأوضح عبارة فتح المجال أمامه للتصرف على طبيعته وفطرته، وإطلاق عنان قدراته وإمكاناته في اكتشاف العالم من حوله، وتلافي زَجِّه وسجنه بين أسوار التحفيظ وتعبئة الذاكرة بابتلاع الأشياء ولَفْظِها بعد حين، مما يجعل العقل ساعيا إلى التخلص من البضاعة المشحونة جُملةً، حالما يتم عرضها على الأستاذ كتابة أو مشافهة، فتبلغ أخيرا مطارح النسيان. هكذا تكون العقول المُثقلة قد تخففت من عبئها المُضني في أول فرصة تتاح لها بعيدا عن مواقف المُساءلة والمتابعة.

ما أحوجنا _على عجل_ إلى أنظمة تعليمية جامعية تأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب المهم من علاقة الأستاذ بطلابه، متجاوزة نظرتها الاختصارية والتقزيمية لمن يعجز،لسبب من الأسباب،عن استعراض المعلومة بشكلها الأصلي كما نُطقت أو كما كُتبت، منتهجةً أساليب أخرى من التقييم والتقويم، تُغلّب أساسا الجانبين الكيفي والمنهجي على الجانبين الكمي والشكلي؛ في أفق إعادة الاعتبار لتعليم فقد بوصلته المُوجِّهة، بل، فقد معناه وجانَبَ أهدافه السامية، بعد أن اقتصر فقط على تفريخ الشهادات!! وهنا، أستحضر الفيلسوف الهندي جدّو كريشنامورتي القائل:"سوف تحصلون على الشهادات،و على درجات التميز التي ستسجل على بطائقكم الخاصة،وعلى وضعيات ممتازة،ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما الفائدة من كل هذا إذا كان عقلك على مر الأيام يصبح باهتا،وضجرا،وغبيا؟".

متى تتحرر جامعاتنا إذن من النظم والمعايير التقليدية في تحديد الطالب الكُفْء من غيره؟ ومتى نتحرر من ورطة الشافعي أمام أستاذه وكيع حين أنشد:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حِفْظي/// فأرشدني إلى ترك المعاصي.

الخبز والسياسة

جاء في إنجيل متّى:" ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله "؛ وقد تكون هذه الآية على المستويين النفسي والعاطفي أقرب إلى الوجدان الإنساني وإلى الفطرة البشرية وإلى العقل بآلياته المنطقية. فالإنسان كونه كائنا فيزيقيا جمع المادة والروح جنبا إلى جنب؛ الملموس وغير الملموس؛ فتقتضي منه الحياة العادية إذن الموازنة بين الشرطين المادي والميتافيزيقي في آن واحد، بالرغم من الآية التي يُستقى منها تغليب الشرط الروحي، تحقيقا للرقيّ الذاتي وللرفاه المعنوي، باعتبار كمالات الإنسان ترتبط أبدا بما يتجاوز التفكير في تحقيق الإشباع من العناصر الاعتيادية للدورة البيولوجية الحيوية (أكل وشرب وتناسل...)؛ لكن، وإن كانت الآية تشير إلى هذا المعنى، فإنها لم تغفل تحقيق شرط الاكتفاء الذاتي من الأسباب المادية، كونها المبتدأ والمنطلق نحو السعي إلى ما فوقها، إذ لا ينسلك في فهومنا البسيطة الحديث عن الدين والثقافة والفنون لشخص جائع وعارٍ !.

في نفس السياق، وفي تماهٍ تام مع معاني الآية الإنجيلية، يزعم مفكر إيران **علي شريعتي** أن "مجاعة الفكر أخطر من مجاعة العيش"،

مشيرا لما قد يُحدثه في الإنسانية فكر متطرف فاقدٌ لبوصلة الوسطية والاعتدال أكثر مما قد تحدثه الجحافل الجائعة المتمردة؛ ومع ذلك، كلنا يتصور ما قد تُحدثه البطون الجائعة التي لا يفكر أصحابها إلا في ملئها، بعيدا عن يوتوبيا الفكر والثقافة والسياسة، ولا شك أن تكون ثورة البطن الجائع أقدم ثورات البشرية. من هنا نحاول إعادة الأمس البعيد مستذكرين جميعا خروج المصريين في عصر الدولة القديمة غاضبين ثائرين على الملك **بيبي الثاني** (ق 22 ق م) بسبب الجوع والقحط والظلم، علما أن الملك كان في مقام نصف إله. بعدها في القرن الحادي عشر خرج المصريون على الخليفة **المستنصر بالله** في ثورة جوعى أخرى لنفس الأسباب. أما في فرنسا 1789، فقد أكد غالبية المؤرخين أن النظام الملكي لم يكن في حد ذاته سبب إشعال شرر تلكم الثورة الدموية، إنما كانت الأسباب اقتصادية صرفة، إذ كان الجوع وسوء التغذية منتشرين بين الفئات الفقيرة مع ارتفاع أسعار الخبز كنتيجة طبيعية لارتفاع سعر القمح.نفس الجوعى الذين قدحوا زناد الثورة البلشفية في روسيا 1917 بعد تمادي النظام القيصري في الظلم والقمع وإمعانه في تفقير الشعب واستنزافه وإثقاله بأعباء الحرب ضد قوات المحور.

إن استقصاء ثورات الجياع قديمها وحديثها عبر العالم، لأمر مُضنٍ، والمقام على كل حال لايسمح بسرديات تاريخية لم تخلُ منها بلاد من بلاد المعمور، كونها، أي الثورات، مرتبطة أغلبها بالخبز كمادة حيوية يعتمد عليها غذاء الشعوب كافة، بالرغم مما يعتري الأطعمة عموما من تنوع واختلاف،إذ لا يمكن تصور وجبة كاملة العناصر ومائدة يغيب عنها الخبز؛ ولا أدل على ما سلف ذكره، مدح **عبد الرحمن الجبرتي** في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" بعض الأثرياء بقوله:"وخبزهم وطعامهم مشهور بغاية الجودة والإتقان والكثرة،وهو مبذول للقاصي وللداني مع السعة والاستعداد"؛ كذلك ما أورده **جمال كمال محمود** في كتابه "الخبز في مصر العثمانية" قائلا:" إذا قل الخبز أو حتى امتنع في الأسواق تتغير أحوال الناس"، طبعا إلى الأسوء، تماما كما ذكر **أحمد بن إياس** في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ما نصه « وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة، كل واحد يقول: روحي،روحي!" ».

ما من شك إذن أن كان الخبز ولا يزال صمام أمان الشعوب، وسببا كافيا لحيازة الاستقرار الاجتماعي والأمني،بل والسياسي أيضا، كيف لا ونجاح الحكومات _ في دول العالم الثالث بالخصوص_ مرهون بدرجة أولى بتمكنها من توفير هذه المادة حد الاكتفاء الذاتي، أو حد

الفائض والإشباع، مادام الخبز الهاجس الأول والأخير لمواطن بسيط لا يدري من الحياة إلا إشباع بطنه وبطون عياله؛ ولله در محمود درويش منشدا:

لم يكن للخبز في يوم من الأيّامِ/ هذا الطعمُ، هذا الدمُ/ هذا الملمسُ الهامسُ/هذا الهاجسُ الكونيُّ/ هذا الجوهرُ الكليُّ/ هذا الصوتُ هذا الوقتُ/ هذا اللونُ هذا الفنُّ/ هذا الاندفاعُ البشريُّ.السرُّ. هذا السِّحرُ.

من هنا ارتباط هذه المادة بالسياسة بشكل وثيق، حتى كادت السياسة في مجملها أن تكون سعيا لملء الأفواه بالقمح وبمشتقاته لا أقل ولا أكثر. ففي دراسة حديثة عن دور الخبز في صناعة الاستقرار في المغرب،أكدت الباحثة الأنثربولوجية البريطانية **كاثارينا غراف** اتصال هذه المادة الحيوية بأبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية متداخلة ومتشعبة، في ارتباط بالبعد السياسي؛ وباعتبار الخبز مادة مدعمة، فقد ظل النظام خلال 150 سنة الماضية متحكما في مختلف أطوار صناعته، إضافة إلى كونه مادة حيوية في المطبخ المغربي، حاملا لقيم رمزية وروحية متجذرة في عمق الثقافة الشعبية. كما أبدت الباحثة استغرابا من ردود بعض المستجوبين المتكررة التي مفادها الأوحد "لا أنتظر أي شيء من الحكومة عدا توفير الخبز"،إضافة إلى إبداء أغلبهم

عدم الاهتمام بالثقافة السياسية (انتخابات، تصويت، أحزاب...)، كما أشارت الباحثة من خلال الاشتغال على البعد التاريخي، إلى أن مصطلح "المخزن" ذاته، مع رمزيته السلطوية والأمنية، فهو في آخر المطاف،ارتكازا على المعنى اللغوي، موضع لتجميع الحبوب وخزنها؛ كذلك يؤكد النظر في الوثائق الرسمية القديمة، خصوصا بالنسبة لسكان الحواضر،أن الخبز ظل خاضعا لسيطرة حكومية صارمة،من حيث سعره ونسبة إنتاجه،إضافة لمراقبة السلطات الأفران والخبازين والموزعين،خلاف ما كان في القرى من متابعة أضعف.

إن بقاء الحكومات في مراكزها مرتهن بتوافر هذه المادة بعينها في الأسواق وفي البيوت،ولعل فشل المستعمر الفرنسي في القبض بزمام الوضع في المغرب،مرتبط بالأساس في عدم توفيقه في توفير الخبز بشكل كاف للمواطن المغربي. ففي كتابها "سياسة الغذاء في المغرب المعاصر" عَزَت **ستايسي هولدن** سقوط الاستعمار الفرنسي بعجز الفرنسيين عن توفير الخبز،طبعا إلى جانب تكاثف عوامل عدة كالركود الاقتصادي العالمي والسياق السياسي الدولي،إضافة إلى تتابع مواسم فلاحية ضعيفة المحصول بسبب الجفاف،الأمر الذي ولَّد سخطا شعبيا في عموم البلاد. وقد حدثنا المؤرخ الاقتصادي **ستيفن سيرلس**،تعضيدا لما أوردته **ستايسي**، في كتابه "الجوع والدولة:المجاعة

والرق والسلطة في السودان 1883_1956"،أن وقوف الدولة على قدميها _السودان نموذجا_ تابع لتعزيز وتقوية الأمن الغذائي، الشيء الذي يخدم ثبات أركانها ويبعدها عن الثورات والقلاقل، والسودان كما نعلم مهيأة جغرافيا ومناخا وبيئيا لتحقيق الاكتفاء والأمن الغذائيين لولا تدخل المصالح الأجنبية التي أفضت إلى تقسيمها وزعزعة أمنها.

إننا مستعدون كمواطنين إذن للاستغناء كليا عن حواشي الحياة وكمالياتها، لكننا بالمطلق غير قادرين،ولو للحظة واحدة،عن الاستغناء عن الخبز الذي يقيم أصلابنا ويسكت جوعة عيالنا، فلا قيمة لشيء أمام قيمة هذا العنصر الإحيائي؛ هنا نتذكر جميعا برنامج الأمم المتحدة الموسوم ب"النفط مقابل الغذاء"،الصادر سنة 1995 بعد قرار لمجلس الأمن، يسمح بموجبه للعراق بتصدير نسبة محددة من نفطه، تخصص عائداتها لتلبية الاحتياجات الغذائية الأساس،بعد ما كابده الشعب العراقي من معاناة واسعة النطاق بعدما وضعت حرب الخليج أوزارها. فهل ثمة لبراميل الذهب الأسود من قيمة تعدل قيمة الخبز في ظروف عادية بَلْه في ظروف أقل استقرارا وأمنا؟

إن السياسات الحكومية في جل الدول العربية،على الأرجح،لا تضع في ديباجات برامجها التدبيرية سوى ما يمكّنها من الاحتفاظ على

الاستقرار العام وثبات الأوضاع التي من شأنها ألاّ تقدح في أذهان المتضررين أفكارا ثورية واستعدادا لهدم الأنظمة وإعادة بنائها؛فالوضع القائم عموما من الشرق العربي إلى غربه،اجتماعيا واقتصاديا وتنمويا وسياسيا،إضافة لما أبان عنه الربيع العربي من النوايا الزائفة المتوارية خلف وعود الساسة؛ لا يدع مجالا للشك في نوايا القابضين على زمام دوائر القرار التي لا تتجاوز سقف تأمين المأكول والمشروب،مهما تعددت تلاوين خطاباتهم ووعودهم الفردوسية التي يكذّبها الواقع كل حين،وكأنهم تماما ينتهجون سياسة الراعي،الذي يجعل كل اهتمامه توفير الكلأ والماء لغُنيماته الجائعة، لتعود مساء إلى زرائبها سعيدة، وليستلقي راعيها مطمئنا آمنا ثغاءها المزعج وغدرها المحتمل! والسياسي صاحب ذهنية الراعي، يدري دراية تامة أنه بمجرد ما يفلح في ملء بطون "القطيع"،فإنه حتما ضامن لهدوء عام سيسود البلاد والعباد.إن قطعة الخبز البسيطة هي عصا الساحر التي تصنع المعجزات!

علينا الاعتراف إذن،ونحن تحت مظلة سياسات العالم المتخلف،أو العالم "الجائع" إن صح التعبير،أننا مهما حاولنا التماهي مع صيحات الحداثة وبدائع التكنلوجيا،ومهما مددنا أعناقنا مطاولة أفكار المستقبل وخوارق العلم المُعجِبة،لن نبرح بالتأكيد مواقعنا

الحالية ولن نتجاوز كوننا شعوبا تربط مصيرها الوجودي على هذا الكوكب بتوافر خبز يُؤكل من رأس السياسي الذي يأمر المواطن كل يوم بالتصاغر وبالخضوع،مهددا إياه إذا أفلت عقاله، بيوم يغمس فيه أصابعه في صحن فارغ.

الدولة العاقلة والدولة المجنونة

قد يكون من غير المنطقي وصف موصوف بنعوت وبأوصاف لا تجد لها موضعا في الذهنية الواعية المشتركة، وقد لا تجوز في حق بعض الأشياء ما يجوز في أخرى من صفات وتوصيمات؛ ولولا تصديرنا هذا المقال بعنوان يبعث في النفس شيئا من الريبة والتساؤل ما كنا لنأتي بهذا الكلام الأقرب إلى ترانيم المتصوفة. فهل توصف الدول حقا بالجنون وبالعقل إذا جاز وصفها بالعدل وبالظلم؟

قالت المتحدثة الأمريكية لدى الأمم المتحدة **نيكي هيلي** عن زعيم كوريا الشمالية **كيم جونغ أون**، في نقاشها حول إطلاق كوريا أربعة صواريخ باليستية: " نحن لا نتعامل مع شخص عاقل !"؛ وإذا تم نفي ملكة العقل والتمييز عن الزعيم الكوري بناء على قراراته المجازفة، فكأنما وُصف رأسا بشيء من الجنون . وحين يصل هذا الاضطراب إلى مراكز القرار وإلى البُنى النفسية للزعامات، فلابد أن تدخل الدول _ بحكم ما يسري عليها من قرارات _ عهد العبث والفوضى، ولا مناص من وصمها،أي الدول، بالمجنونة؛ بالأخص إذا لقيت تلك القرارات

قبولا شعبيا واسعا، وسَعَت مكونات المجتمع إلى إدخالها حيز التطبيق بدم بارد.

أُثِر عن التاريخين القديم والوسيط نماذج من القيادات السياسية التي ارتبط اسمها بالحمق وبالغرابة حدَّ الاندهاش، إذ لم تكن القرارات الصادرة من أولئكم إلا قرارات حمقى أو مغفلين أو مضطربين نفسيا؛ وهي أبعد ما تكون صادرة من حاكم أو مسؤول ذي حنكة سياسية وخبرة إدارية تخولانه بلوغ السُّدّة العالية من الحكم والسلطة. إن التاريخ لن ينسى بالتأكيد الإمبراطور الروماني **جايوس**، المعروف ب**كاليغولا**، المشهور بوحشيته وجنونه وساديته، إذ استبدت به فكرة حلول الإله في ذاته، فأتاه اليقين بأنه يستطيع فعل أي شيء في مَن دونه من البشر،وكم بَرم الشعب بالعديد من حماقاته. بعده بعقود يسيرة بلغ رأسَ السلطة الرومانية الامبراطورُ **نيرون**،الذي راودت خياله فكرة بناء روما جديدة بعد إزالة كل آثار روما القديمة حرقا! وهي الفكرة التي نفذها للأسف سنة 64 م. التاريخ الإسلامي كذلك لم يخل من بلاهات وحماقات أصحاب السلطة والقرار، فقد ذكرت كتب السّير قصة **عُيينة بن حصن**،زعيم قبيلة غطفان، المعروف بالأحمق المُطاع، صاحب القرارات المتسرعة الآتية دوما بنتائج سلبية عكسية. ولم يخل تاريخنا كذلك ممن ملأ الدنيا وشغل الناس

كطاغية بني أمية،**الحجاج بن يوسف الثقفي**، الملقب بالمبير وبالمبيد، لسِجِلِّه الطافح بدماء بشرية طوال مدة توليته على الحجاز والعراق. ومن كيس الجنون دائما،لا ينبغي إغفال الخليفة **الحاكم بأمر الله** الفاطمي، المعروف بالمجنون، الذي استصدر حزمة من المراسيم المنافية للعقل وللمنطق الباعثة أحيانا على السخرية. هي نماذج من بين أخرى ذكرها التاريخ في سيره السوداء والمُخجلة؛ ولم يكن العصر الحديث بِدعًا، ولم يخلُ من سواد كأسلافه، ففي كتابه "جنون من الطراز الرفيع"، عرض **ناصر قائمي** عددا من القادة والزعماء الغربيين، الذين _ وإن حاولوا التستر _ كشفوا، خلال مسيرتهم السياسية، عن أشكال من الانفعالات والسلوكات يبدو أنها كانت صادرة عن شخصيات تعاني اضطرابات نفسية حادة، تصل أحيانا درجة الجنون والفشل في الاحتفاظ بالبوصلة، مما يجعل،حسب الكاتب،الرابط قويا أحيانا بين المرض العقلي وبين الزعامة؛ ولنا في **تشرتشل ولنكولن** و**موسوليني** و**هتلر** و**راسبوتين** و**فرانكو** و**تشاوتشيسكو** و**ستالين** و**بوش** الابن وغيرهم أمثلة لمن ترجموا "جنونهم" إما باضطهاد شعوبهم وفرض سيطرة قمعية واضحة، أو بإجبار هذه الشعوب في الانخراط في حروب اشتجرتها أهواء ونوازع نفسية تنتهي بمجرد إرضائها وإشباعها؛ وكم صدق الأديب **جون**

شتاينبك قائلا:" كل الحروب هي عرَض من أعراض فشل الإنسان كحيوان مفكر".

إن الماضي طافح كما تقدَّم بخسائر بشرية لا تُتصور فداحتها وأكلافها؛ طافح بقرارات قاتلة أعادت ركب البشرية أحيانا إلى العصور البدائية الأولى، لا لشيء سوى لأن هذا الزعيم أو ذاك أراد تحقيق ذاته، وتسطير تاريخه الشخصي كيفما اتفق، استرضاء لجنون العظمة لديه؛ أما شأن الحاضر فلا نراه أكثر حظا من أمسه البعيد والقريب، فلازالت نفس السلوكات والذهنيات تعيد إنتاج نفسها مع تغيير طفيف في الأساليب والوسائل، أما القديم فلا زال حيا ماثلا أمامنا في صوره المتعددة؛ ولله در الجواهري قائلا:

وَقائلةٍ أما لكَ من جديد؟ // أقولُ لها القديمُ هو الجديدُ.

لعل الحديث عن الدولة "المجنونة" عبر تاريخها الطويل،يفضي بنا تلقائيا إلى الحديث عن مقابِلتها "العاقلة "، الملتزمة بعهودها وبالعقد الاجتماعي الذي يربطها بالشعب، ساعية إلى تنمية المجتمع في بُعده الشامل، في سيرورة غير منقطعة وغير مشروطة؛ متقبِّلة كل أشكال النقد وردود الأفعال إزاء كل تشنج أو عائق يُبطئ مسيرها، إن على شكل احتجاجات أو إضرابات أو بيانات نقابات وأحزاب أو

توصيات المثقفين والمفكرين. إن ما يمنح الشرعية لأي دولة، اقترابها من" القاع" الاجتماعي، وتجسيرها الهوة بينها وبين الكتلة البشرية المتحركة ضمن نطاقها الجغرافي، ومراعاتها مصلحة المواطن الفضلى في كل قراراتها وفي كل برامجها التنموية، التي ينبغي أن تستهدف كل طبقات المجتمع، مع إيلاء الأهمية القصوى للشرائح الدنيا؛ وكل شعوب الأرض لا نظن إرادتها، بل أحلامها، تتجاوز بلوغ عتبة العيش الكريم، أو ما يضمن حياة عادية للفرد.إن المعادلة التي تضع الدولة على نفس الخط مع الإرادة المجتمعية،هي في الحقيقة المعادلة "السحرية" التي تضمن نجاح أو فشل الأنظمة الحاكمة إزاء شعوبها،إذ لا نتصور نجاحا بين إرادتين متعارضتين ومتنافرتين بين الأفراد بَلْهُ تصوّره بين جماعات،خاصة إذا استعصم كل طرف بمصلحته الذاتية.في ذات السياق تحدث **عبد الله العروي** في كتابه "مفهوم الدولة" قائلا:" يبدأ التفكير في الدولة عندما نفكر في مقتضيات الإرادة الجماعية "، كما أكد **عبد الإله بلقزيز** في كتابه "الدولة والمجتمع" هذا المعنى بقوله:" ربما كانت الدولة أعظم اختراع إنساني في التاريخ لأنها مكنت المجتمعات من أن تقوم، ومن أن تحسن تنظيم نفسها وتحصيل شروط حياتها وتأمين أمنها في الداخل والخارج".

في الجانب العربي،أبان الربيع العربي وكشف_ إلى حد كبير _عما كانت الشعوب ترزح تحته من سلوكات ظلامية وغير مسؤولة،إضافة إلى ما صار يشكل بنية الأنظمة العربية من استبداد وعدم اعتراف بصوت الشعب، وكسر أقلام النخبة المتنورة، بل، وتصفيتها إن لزم الأمر؛ فكان هذا الربيع فرصة ليعرف العالم فداحة ما صنعته الأمزجة الحاكمة في شعوبها التي أبت إلا أن تخرج من جحورها وتعلن أمام الكل "أنها على موعد مع الربيع!" بتعبير **جورج سنتيانا**، كما أعلنت أنها ليست تحت قبضة دول فاشلة فقط،بل، تحت دول مجنونة دون مبالغات. إن ما آلت إليه الأحداث في ليبيا وفي سوريا وفي اليمن وفي مصر وفي بلدان عدة، وما أبانت عنه الأنظمة الحاكمة من تشبث هيستيري بالسلطة، ولو كان الثمن إحراق ثلاثة أرباع الشعب،أو تهجيره، يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أصحاب السلطة في الأقطار العربية لازالت تسكنهم هواجس الخلود والقوة المطلقة والاستعباد غير المشروط لمن دونهم، تحت مقولة " أنا الدولة والدولة أنا " للملك **لويس** الرابع عشر، وكأنهم يعيدون سِيَر الفراعنة تجسيدا وتفعيلا ! إن جنون العظمة أحد أعراض البرانويا(الذهان النفسي) كما تحدث عنها الطبيب الألماني **ريتشارد فون كرافت إيبنج** منذ 1879،وقد كان يحملها الزعماء ممن ذكرنا وآخرون مازالوا في دوائر القرار،بالرغم من

كونهم يبدون ظاهريا السلامة النفسية؛ولعل التاريخ لازال يتذكر الحاكم العسكري **جون بيدل بوساكا**،الذي لم يتوان في إنفاق ثلث ميزانية أفريقيا الوسطى سنة 1976،احتفالا بتنصيبه كإمبراطور،بالرغم مما كان يعانيه الشعب من سوء تغذية ومرض وفقر؛أما في عام 1979،فقد اعتقل المئات من تلاميذ المدارس بتهمة رفضهم اقتناء الزي المدرسي من شركة كانت في ملكية إحدى زوجاته!!

في الحقيقة لم تخل دولة تاريخيا من زعماء أفنوا شعوبهم ودمّروا بلدانهم بقرارات فيها ما فيها من الجنون ومن فقدان جادة الصواب،من أجل مجد شخصي واسم يُنقش قسرا في ذهنية الشعوب وعلى صفحات التاريخ، سواء ارتبط بمعلمة عمرانية أو بمؤسسة اجتماعية ومدنية، مهما كلف ذلك من خزينة الدولة. وإن كان هذا الجنون قد انتفى بشكل شبه كلي في العالم الغربي المتحضر،فلازال الجنون يقبع في أنظمة العالم العربي الحاكمة؛إذ لا تبدو المفارقات والشذوذات والمتناقضات والغرائبيات والغوامض سوى في هذا الجزء من الكوكب، وكأن العقل الجمعي في هذه البلدان يتقبل بكل بساطة ما يسري عليه من سلطان تاريخي واجتماعي وديني،ظنا منه أن كل ما يقومُ به السائسون باسم التنمية الاقتصادية والدعم الاجتماعي وتقريب الدولة من الفقراء،وإن كان تفاهة من التفاهات،لابد أن

يحمل في طيِّه ثمارا لا يدركها سواهم،ولو باعوا نصف البلاد من أجل مباراة في كرة قدم،أو من أجل حفل موسيقي.

الدين، من الطمأنينة إلى القلق !!

" مسكينة القيم كلها حين لا تصدر إلا عن هزيمة حياة ".

جبرا خليل جبران

من نافلة القول التأكيد على أن الأديان كلّها،السماوية منها والوضعية، جاءت بقصدية وباعث تهذيب السلوكات وتحسين الأخلاق، ورفع العلاقات البشرية فيما بينها، وكذا العلاقات بين الخالق ومخلوقاته إلى مستوى عال من الخيرية والصلاح، تحقيقا للغاية الأزلية من الوجود. فالدين في آخر المطاف، لا يكون ذا فائدة إن لم يحقق للإنسان ذاك السلام الداخلي والطمأنينة النفسية والروحية والرقي الأخلاقي والمعاملاتي. طبعا، دون تحميل الدين ما لا طاقة له به، فهو أبعد من كونه ترياقا لكل أعطابنا البشرية الذاتية والعضوية التي تحتاج بالتأكيد إلى أنواع خاصة من العلاج. فمن الحماقة إغلاق المستشفيات فقط لأن الله هو الشافي !!

في سياق ما أحدثته بعض الخلايا المتطرفة، المحسوبة على "الإسلام"، تحت ما أضحى يسمى بتنظيم الدولة الإسلامية بالشام والعراق، وفي ظل ما نشرته من قلاقل ورعب وتهديدات للأمن القومي

على المستوى العربي، بل على المستوى العالمي، وبعدما وُسمَ كل "مسلم" بالإرهابي بما يخفيه داخل حقيبته الفقهية من فكر تفجيري وتكفيري وأحزمة ناسفة ومحو الآخر "الكافر" الخارج عن الملة؛ دقت دول الغرب والشرق على السواء نواقيس الخطر القادم من الفهم المغالي والمتطرف للدين، ومن بعض التفاسير الجهنمية الإقصائية والإفنائية لبعض المضامين القرآنية والحديثية،بعيدا عن المقاصد الوحيانية التي تنحو وتجنح إلى صناعة السلم العالمي من منطق الرحمة والتآلف والعيش الآمن، مصداقا لقوله عز وجل { وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }،وقوله عز من قائل { وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا }، وكذلك قوله جل وعلا { وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله }. من هنا تعالت الأصوات وارتفعت النداءات بضرورة صياغة الفهم صياغة تعلي من شأن الإنسان وتصغي إلى وجوده ككائن يستحق العيش على هذه الأرض، مهما كان توجهه العقدي أو انتماؤه العرقي أو الطائفي. وأمام هذا التحول المُلحّ غير القابل للتأجيل ولا للتجاهل، سارعت مختلف الدول العربية ممثَّلة في وزارات التربية والتعليم، وفي كوادرها المهتمة بالشأن الديني، إلى إعادة إنتاج مناهج دراسية ومقررات تربوية تتناسب وراهنية الوضع الدولي،

وهو الرّكب نفسه الذي سارت فيه وزارة التعليم المغربية، من خلال مراسلة مستعجلة وجهتها إلى لجان التأليف

المدرسي وناشري الكتب المدرسية، وذلك في مطلع يونيو/ حزيران الماضي، مفادها « إعطاء أهمية أكبر للتربية على القيم الإسلامية السمحة والتعايش مع مختلف الثقافات والحضارات الإنسانية »؛ بمعنى إعداد منهج "ديني" يتغيا بلوغ مخرجات تربوية وقيمية قادرة على ضخ المجتمع بمتعلمين [قادرين على معرفة ذواتهم المشبعة بالقيم الإسلامية المتسامحة والقيم الحضارية، وقيم المواطنة، وحقوق الإنسان، وبلورة ذلك في علاقاتهم مع الآخرين][1]. الخطوة التي لقيت مباركة واستحسان عدد هام من المهتمين بالشأنين الديني والتربوي، طبعا دون إغفال بعض أصوات الاستنكار والشجب المرتفعة هنا وهنالك بخصوص بعض التفريعات والتفاصيل التي قدمها الإصلاح الجديد.

(1) - التوجهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس التربية الإسلامية بالسلك الثانوي التأهيلي. مديرية المناهج. نونبر 2007.

بأي جديد جاء الإصلاح؟

من المبكر حقيقة التحدث عن إصلاح شامل وتام، والوزارة الوصية لازالت في سعي حثيث لإنزال مختلف المستجدات لتشمل كافة الأسلاك التعليمية، ومن استباق الأوان كذلك الحكم على تجربة إصلاحية لم تزل في مهدها الأول؛ لكن وبالرغم من ذلك، وحسب ما توفر لدينا من مراجع جديدة تمت المصادقة الرسمية عليها، يمكن التأكيد _ لحد الآن على الأقل _ على أن مرامي الإصلاح والتغيير والتجديد لم تبرح مكانها القديم، وأن نماذج الكتب المدرسية الجديدة، خاصة بالسلك الابتدائي، لم تكن إلا نسخا طبق الأصل مما تُدُوولَ سابقا، سوى ما تم الوقوف عليه من تحديث في الشكل والمظهر، كما يمكن لأي كان أن يلمس إدراج بعض الدروس ذات المضمون الحقوقي والوطني، وهي الدروس ذاتها المُدرَّسة في مكون "التربية على المواطنة". ليُلخَّصَ عمل لجان التأليف بكل بساطة في نقل دروس من مقررات موازية ودمجها بين دفتي منهاج " التربية الإسلامية"، مع تعزيزها بآيات قرآنية ونصوص حديثية شريفة، لتغدو في حلتها الأخيرة في ثوب ديني صرف، مع الإبقاء على نفس التأويل والتفاسير لبعض الآيات والأحاديث المأخوذة من كتب المفسرين المعروفين في تراثنا الإسلامي (الطبري، القرطبي، ابن حجر العسقلاني...)؛ وإغضاء الطرف _ إلا في الفروع _ عن اجتهادات المعاصرين،أصحاب الخطاب التنويري

المنفتح والمتسامح مع الآخر، أولئك الذين تعاملوا مع التراث الفقهي الموروث بمنهج نقدي جينالوجي يعود إلى الأصول، ويعيد محاكمة كل ما تداوله التاريخ، بل ويتجرأ على قلبه أحيانا رأسا على عقب ليوقف كل العقارب على زمن الصفر.

فكل إصلاح إذن يركز على الزخارف وعلى القشور، ولا يعطي أدنى أهمية للمضمون ولجوهر الأشياء؛ لا يعدو أن يكون مَثَلُهُ مثل الذي يحاول طلاء بيت متهدم الأركان والسقوف، جريا على نهج الإصلاحات التي راكمتها المنظومة التربوية المغربية منذ انقضاء فترة الاستعمار إلى يوم الناس هذا.

فأي جديد تظن هذه اللجان المكلفة بالإصلاح أنها أتت به؟ وأي فتح هذا الذي تعتقد أنها بلغته، حين جعلت دروس المقررات الجديدة تنطلق من مداخل تحت مسميات (التزكية _ الاقتداء_ الاستجابة _ الحكمة_ القسط)؟ كلمات رنانة تم اجتزاؤها عن وعي _ كما يبدو _ لتحل محل ما كان قبلها من "مسميات " حَرَفَتْ حسب اعتقاد " المصلحين" الفُهوم عن مسار الدين الصحيح !! وما الداعي لأن نغير ألوان " قبعات " الدروس، ما دمنا لا نزال ندرّس أبناءنا _ بعد الإصلاح _ نفس ما كنا ندرّسه من الفكر قَبْلاً بدعوى أنه من ثوابت الدين وقواعده اللازمة؟! أليس حريا بمن أنيطت بهم مهمة برمجة المقررات الدينية من الصفر إعادة النظر في

مواضيع التكفير والجهاد والفتوحات الإسلامية، والحد ما أمكن من انتشار وتوسع التفسيرات والتأويلات القاتلة الموروثة، التي أنشأت تدريجيا ما يسمى بالإسلاموفوبيا؟

إن الإصلاح غير القادر على اقتلاع الداء من جذوره، ولا يعيد تفكيك وغربلة ماضي المدونات الفقهية المتعرق والمتجذر في نفوس من أُوكل بهم إعداد وتمرير المناهج الجديدة، سواء من لجان التأليف، أو من المدرسين أنفسهم؛ لَهُوَ تضليل ودرٌّ للرماد في العيون، وتهدئة لحناجر الصارخين والمثربين من الغرب؛ طبعا وكالعادة، سنكون بهذا الإصلاح السطحي بذّرنا المال العام على حفنة مصطلحات ومقررات تعيد إنتاج الخطاب القديم في جلابيب جديدة تُغَيّرُ ألوانها كل سنتين أو ثلاث، الأمر الذي سيجعل من تدريس "الدين" دائما مصدر قلق وتوجس وإرهاب كما كان تماما قبل نوايا الإصلاح، في حين أن عمق التغيير يكمن في الاعتراف، كما اعترف "جمال الدين الأفغاني" سابقا بأن أقصر طريق للتبشير بالإسلام في العالم، أن نقنع أنفسنا أولا أننا لسنا مسلمين جيدين .

الشعب المغربي والمهدي المنتظر !!

لم يزل الوقت مبكرا على القول بأنني أستطيع قراءة الواقع الدائر حولي قراءة دقيقة سليمة، ومازال مبكرا كذلك على المغامرة والتحدث في أمور السياسة بِعُجَرِها وبِبُجَرِها كما يقول العرب. لكن، ومع ذلك، لابد أن نخلق هامشا من الحرية لنقول ما يدخل في حيز المشاهدة البسيطة والقراءة غير العميقة للأحداث اليومية، الحقيقي منها والمزيف !! إذا كانت السياسة في أبسط تعاريفها تعبيرا عن عملية صنع قرارات ملزمة لكل المجتمع، تتناول قيما مادية ومعنوية، وترمز لمطالب المواطنين ضمن إطار عام تسعى فيه الحكومات المنتخبة إلى تحقيق أهدافها وبرنامجها المتعاقد عليه مع الناخبين. طبعا دون إنكار الخلفيات الأيديولوجية والمرجعيات الفكرية التي تدير دفة كل نخبة سياسية في دائرة القرار، دون المزايدة على خيار مصلحة الوطن التي تتعالى على كل منهج فكري مهما كان، وعلى كل إمكانية لفرض رغبات شخص ما على الآخرين.اختصارا، إذا كان الدارسون للعلوم السياسية عالميا قد تسالموا تقريبا على هذا التعريف أو ما يشابهه في المضمون، فلماذا لا تكون "السياسة" تلك هي نفسها في بلداننا العربية؟! لم

أتوسّل هذه المقدمة حقيقة إلا لارتباطها براهن حديث الشارع المغربي والرأي العام، الذي لم يفتأ ينتظر تشكيل الحكومة الجديدة، بُعيد الانتخابات الأخيرة التي عرفتها البلاد؛ الشعب الذي ظل في قاعة الانتظار لمدة تزيد عن خمسة أشهر تقريبا، آملا أن تُسفر هذه المماطلة كلها عن حكومة "راشدة"، تستطيع الإنصات لنبض المواطن، بل تلتزم أمامه بتغيير وضعه المأزوم وانتشاله من مستنقعات اجتماعية واقتصادية وثقافية لم تجفّ مياهها الراكدة منذ فجر الاستقلال، حسب ما كانت أبواق الدعايات الانتخابية تصدح به في كل مكان. لكن، سُقِطَ في أيدي المغاربة من جديد، ولم تأت تطلعاتهم إلا بما أتت به الحكومات السابقة، وكلما تمخض الجبل إلا وأنجب فأرا كالمعتاد !! فكان أن استُوزِرَ تسعة وثلاثون وزيرا، بينهم تسع نساء. سيرهم الذاتية تظهر أنهم من علية القوم، ولا أحد منهم أكل في صغره خبزا حافيا، وخطا بقدمين حافيتين مثل قطاع عريض من الشعب، والأدهى أن بعضهم يقطنون في أوروبا ولا يعرفون من المغرب إلا أرقام هواتف ذويهم .. فكيف تُراه يمكن للمتخم أن يُحس بالجائع؟ والمتأنق ببدلات "مُوقَّعة" بالعاري؟ والمقيم في إقامات ديبلوماسية فارهة بالذي ينقل أبناءه من كوخ مهدم إلى آخر؟ والذي يتنقل بسيارات الدولة الفخمة بالذي يستقل الحافلات المزدحمة؟ قطعا لا يستوي هذا

بذاك، ولا يمكن لمن لم يخْبُر معاناة الناس وأوضاعهم أن يغير وأن يُصلح، كما لا يمكن لمن لم يَنْبُت بماء الآبار المالح والخبز القمحي الصلب أن يضع برنامجا تنمويا يُحْيي مَوَاتَ الشعب ويستدرك ما يُعوزهم.

إني لمتعجب أشد العجب من شعب ينتظر مستقبلا ورديا وزاهيا من حفنة وزراء عرفهم أجداد الآباء وعرفهم الآباء، وها هم الأحفاد يعرفونهم بنفس ألقابهم؛ طبعا، لأن عُرفنا "السياسي" يسمح بتوريث المقاعد البرلمانية، بل، بتوريث الوزارات كذلك. فإن كنا نسمع بالشركات والمؤسسات العائلية، حتى عدنا نرى بعيني رؤوسنا وزارات "عائلية" غير معلنة !! ومن الحمق _ كما زعم أينشتاين _ أن تعطي نفس الأسباب نتائج مختلفة كل مرة؛ وإنه من الحمق كذلك انتظار شخص "غريب" بعيد كل البعد عن حركات وسكنات المجتمع أن يُخلِّص الناس من فقرهم ومن جهلهم، كما ينتظر أصحاب العقيدة "المهدية" مُخلِّصهم منذ قرون، المنوط به ملء المعمورة هدى وإيمانا وعدلا، متجاهلين الآية القرآنية الواضحة وضوحا فاقعا، التي يقول فيها عز وجل ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

(1) - الآية 11 من سورة الرعد.

فإذا كان التغيير في شتى شؤون الحياة نابعا من النفس ومن الذات، فمن العبث "الدون كيشوتي" قطعا الوقوف في أماكننا جامدي الإرادة مُشرئِبِّي الأعناق، متطلعين لمعرفة رياح التغيير أتأتي شرقية أو غربية !! وقديما قال «الشافعي»: نبغي النجاةَ ولم نسلُكْ طريقتها // إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

إن " السّلبية " المتجدرة في المواطن المغربي، التي تحدث عنها المفكر « عبد الله العروي» في مناسبات عديدة واقع لا مراء فيه، ويجب أن نعترف أن "الانتظارية" المتفشية بيننا كبلت بشكل ملفت كل إمكانية للتحرك وتغيير مواقع أقدامنا الثابتة، وتحيين عقولنا وسلوكاتنا وأنماط تفكيرنا الراكدة المعتادة منذ أمد طويل على استقبال الحلول من الخارج، دون بذل أدنى جهد يذكر. فيُنتظر من الحكومات " المؤقتة " أن تنظف بيوتنا وشوارعنا، ويُنتظر منها أن تطارد العاطل وتبحث له عن عمل وتنشئ له بيتا وتبحث له عن زوج، ويُنتظر منها كذلك أن تجعل البلاد جنة على الأرض. إنها أضغاث أحلام حقا !!

لا ينبغي أن يُقرأ هذا الكلام طبعا بحُرُوفية مطلقة،فهذا يعني إخلاء الحكومات المنتخبة من كافة مسؤولياتها والتزاماتها إزاء المواطن، فالدولة، والحكومة جزء منها، مرتبطة بعقد اجتماعي _ بتعبير «روسو»_ مع رعاياها، وهي، أي الدولة، المشرفة على مختلف الأنشطة

السياسية والاقتصادية والاجتماعية الهادفة إلى تقدم وازدهار البلد، وكذا إلى تحسين مستوى حياة الأفراد فيه. وهذا من البَدَهي والمسلّم به. وقصْدُنا هنا الجمع بين "إيجابية " المواطن و"رعاية " الدولة من خلال حكوماتها المتعاقبة، والجمع بين مسؤوليتهما تجاه الوطن. فلا أحد ينتظر الآخر ليأخذ زمام المبادرة، ليلتحق الساكن بالمتحرك ويتعقب خطاه. فنحن من موقع الشعب، يلزمنا تجميع أشتات إرادتنا الجمعية في تغيير ما يمكن تغييره داخل نطاق محيطنا القريب، دون الحاجة إلى تعداد الساعات والأيام في انتظار تنفيذ مقتضيات برنامج حكومي كان مجرد "وعد"، والوعود في طبيعتها دائما تكون رهن الغيب، فإما أن تتجسد في الواقع ويهنأ بها المواطن، وإما أن تكون في طيّ النسيان، وهذا أغلب الظن ما يحدث في ظل غياب رقابة حقيقية ومحاسبة لكل المتلاعبين بمصائر المتطلعين إلى وضع أفضل.

إن كل إرادة شعبية للتغيير تفوق دائما إرادة مؤسسات الدولة، خصوصا إذا وُضعت هذه المؤسسات في أيدي "الغرباء" عن المجتمع، أولئكم الذين يظلون في غيبوبتهم وفي قطيعتهم عن أوجاع الناس طوال فترة تقليدهم مناصب المسؤولية. والتاريخ أكد ومازال يؤكد إمكانية التغيير الجذري للأوضاع العامة طالما تحركت "الرغبة" و"العزيمة" في نفوس ووجدانات الجماهير الشعبية، مستحضرة كامل واجبها

ومسؤولياتها تجاه محيطها،فهي التي حررت الأوطان من الأطماع الإمبريالية الخارجية، وكانت صمام الأمان ضد الأنظمة الحاكمة الفاسدة؛ وهنا نتذكر جميعا «جمال الدين الأفغاني» مخاطبا الشعب الهندي المستعمر آنذاك من الدولة البريطانية، حين قال:" أيها الهنود، لو كنتم سلاحفَ لاستطعتم بعددكم أن تَجُرُّوا بريطانيا، ولو كنتم ذبابا لزعزتموها بطنينكم !! ". فالشعوب جملة وتفصيلا ما صنع ويصنع الحضارات الإنسانية، ولا داعي لانتظار "مهدي" وهمي أو مسؤول حكومي يصنع المعجزات بعصا سحرية. ولقد صدق «موليير» قائلا: " الثورة لم تصنع موليير، إنما موليير من صنع الثورة ".

أيها الكبار دعوا الصغار يكبرون !

قد نقبل - تجاوزا وبحذر شديد - أن يكون في حقل الإبداع الإنساني عموما، والأدبي خصوصا، كبير وصغير؛ أو بتوصيف آخر، محترف ومبتدئ. لكننا على العكس تماما، نرفض رفضا باتا وصاية هذا "المحترف" أو ذاك "الكبير" على أي مبتدئ، كما نرفض استتباعه بأي شكل من أشكال الطاعة والولاء، كيفما كانت سرعة هذا المبتدئ وقوة بداياته وانطلاقته في مضمار الإبداع الإنساني بأنواعه.

من بداهة القول التأكيد على حقيقة تشعب وتفرع وتنوع طرق الإبداع في شقه الأدبي، نثرا كان أو شعرا؛ فيكون من الطبيعي إذن أن يشق كل ذي قلم الطريق المناسب لميولاته الذاتية، ويختطَّ لنفسه الصيغة والنهج اللذين يناسبانه ثقافيا واجتماعيا وأيديولوجيا، بما يضمن له تأطير كتابته ضمن سياقات محددة ومفهومة أمام القارئ. لكن، لا يسع الكاتب أن يبلغ مرحلة "النضج" الأدبي، واحتراف لغة "الكبار" _ إن صح التعبير إلا بعد قطعه بلا شك مرحلة "الطفولة" و"المراهقة" الفكريتين، حيث لايزال الكاتب في مراحله الأولى من استكشاف عالم القلم والأوراق البيضاء، والاستعلام عما يمكن للقلم

أن يخُطَّه من شعر ونثر. مازال في بدايات قراءاته الطفولية لشعر «نزار قباني» و«نازك الملائكة»، وروايات « أغاثا كريستي» و« نجيب الكيلاني »؛ ولم يبرح بعدُ ساحَ بدايات ترصيف الكلام وتنضيد المعاني وشطب الفكرة وتعويضها بأخرى؛ أما تمزيق الأوراق فظاهرة لم يسلم منها أي كاتب مهما بلغ حجمه وذاع صيته. يمكننا الدمغ إذن بأصابعنا العشرة على مجمل ما قيل، وتشبيه الإبداع بكرة ثلج، تزداد سرعةً وحجماً كلما مضى زمن على تدحرجها في منحدر ما، لتبلغ أقصى ما يمكنها بلوغه نهاية السفح المائل، حيث ترتطم بالسطح المستوي، هنا فقط تبلغ كمالها الأقصى ويتوقف كل شيء. فعلامَ هذا الكلام كله؟

وأنا أطالع بعض ما يُكتب على صفحات الإنترنت من تقارير لجان التحكيم في العديد من المسابقات الأدبية، يسوؤني حقيقة ما يقدمه بعض الذين يحسبون أنفسهم من كبار الأدباء والشعراء من ملاحظات عامة على إنتاجية بعض المبتدئين في ميدان الكتابة، معتبرين إياهم عالة على الإبداع، بل ووصمة عار على جبينه، وهنا أتذكر موقف أحد المشاركين في مسابقة "أمير الشعراء" الإماراتية، حين انتهره الناقد المصري « صلاح فضل» بقوله: "من قال لك أنك شاعر؟!"؛ ومثل هذا الحكم يقترب كثيرا من سابقه المتوغل في الماضي، حيث أوردت بعض كتب الأخبار أن النحوي البصري « أبو عثمان المازني » سمع مقاطع

من أحد المبتدئين في تقريض الشعر، فرد عليه « المازني» قائلا: " الحمد لله أن أخرجته من جوفك، فلو تركته لقتلك!!" . فما عساه يا تُرى يكون إحساس من يُقصف بهذه اللغة وبمثلها أمام الملأ؟ وما عساه يكون مستقبل هذا الذي يتلقى من الشحنات السلبية ومن العبارات الهدَامة ما يجعل الجبال الراسيات تستحيل غبارا متطايرا؟

لست الآن طبعا في مقام تقديم إجابات، فالأجوبة تبدو واضحة ولا تحتاج لكثير تفصيل، ولست أرى ناجيا من عقابيل تلك التساؤلات ومن تداعياتها إلا مُستثنىً تولاه الله بعناية خاصة؛ ولقد صدق « شوقي» قائلا:

قُـوّةُ اللهِ إنْ تَوَلَّتْ ضعيفـــًا /// تَعِبَـــتْ في مِراسِهِ الأقويَـــاءُ

في مستهل القرن العشرين، عزم شاعر ألماني شاب لم يبلغ ربيعه العشرين بعد، يُدعى « فرانتز كابوس»، على إرسال شعره إلى الشاعر المعروف وقتئذ « راينر ماريا ريلكه»، سائلا إياه النصح والرأي في قصائده، وهل بإمكانه مواصلة الكتابة أو التوقف تماما عن حمل القلم. فكانت المفاجأة أن يتلقى الشاعر المبتدئ ردا من العظيم «ريلكه» قال فيه: " (...) لقد أعدت – مثلما تلاحظ – كتابة رباعيتك، لأنني وجدتها جميلة وبسيطة، ووليدة شكل تنامت فيه بانضباط

أخلاقي هادئ. إنها أفضل أبيات لك، تمكنت من قراءتها، وإني أسلمك الآن هذه النسخة، لأني أعرف جيدا أنه أمر مهم وتجربة جديدة، أن يجد المرء عمله الخاص مكتوبا بيد غريبة. اقرأ هذه الأبيات كما لو إنها ليست لك، وستشعر من أعماقك كم أنها أبياتك أنت. لقد كانت قراءة هذه الرباعية ورسالتك سعادة لي، فشكرا على هذه وعلى تلك."؛ ولنا أن نتأمل هذا الرد مقارنة بسابقيه، ومدى الأثر النفسي الإيجابي الذي سينبعث في نفس « كابوس» الصغير، خاصة إذا تمت إعادة كتابة مقطع من قصيدته بقلم شاعر بحجم «ريلكه» !!. وغير بعيد عن هذا النهج والمستوى الرفيع من الخطاب والتواصل، ساهم العديد من "كبار" الأدب في إسداء النصح للمبتدئين وفي تشجيع الجيل الناشئ على الاحتكاك بالكتابة؛ أمثال « تولستوي» و« تشيخوف» و«غوركي» و« والت وايتمان» و« طه حسين» و«ميخائيل نعيمة» .. وآخرون بلغوا من الكبر الأدبي عتيا- بمعيار جائزة نوبل _ البيروفي « ماريو فارغاس يوسا» في رسائله الشهيرة إلى روائي شاب، حيث كان يردد عبارته:" كونوا وحيدين ولا تصدقوا الإطراء !"، بعيدا عن كل خطاب تقزيمي وأحكام تبخيسية قاتلة وعبارات الاحتقار والاستهزاء.

لاشك أن الكتابة الإبداعية الرصينة مرتهنة باستيفاء شروط عامة، تجعلها مقبولة التصنيف في حقول الأدب المختلفة؛ ولا شك أن

الرداءة والركاكة و"الشخبطة" سرطانات بدأت تنخر جسد الإبداع الأدبي من أعلاه إلى أسفله، وذلك مردُّهُ لعوامل شتى يحتاج بسطها لمقام آخر؛ ومن المؤكد أن كل أديب بدأ يخطو خطواته الأولى في درب الكتابة الطويل والشاق، يحتاج لمن يدله على ما استُغلق أمامه من أبواب تستدعي أقفالها مفاتيح خاصة. فلكل لعبة قواعد خاصة وخارطة ينبغي اتباعها، وما الأدب بمعزل عن تلك القواعد، بالرغم مما يتيحه من فسحة منداحة من الحرية والاستقلالية. لكننا نؤكد على ضرورة مخاطبة الأجيال الناشئة بلغة محقونة بجرعات كبيرة من التشجيع ومن التفاؤل ومن تذليل الصعاب، كي لا نخسر المبدع بقتله مرتين _ كما كان « بيسمارك» يدعو جنوده الألمان بشأن الجنود الرُّوس _، أولا بإلقاء مسودات حروفه في أقرب قمامة على أنها لا تستحق القراءة؛ ثانيا بدعوة هذا الناشئ باحتراف شيء آخر غير الكتابة . هنا يتناسى أديبنا "العظيم" أنه ذات يوم كان يقضي الساعات الطوال جالسا على أعتاب بيوت "الكبار" يستجدي قراءة عمله وتلقي ما يرضيه من ملاحظات!!

قد يغتر بعض الكتاب بإصدار مؤلف أو مؤلفين، وبتداول أسمائهم على إعلانات بعض الأماسي الأدبية هنا وهناك. كما يمكن للعُجْبِ أن يُساوره بلقاء إذاعي أو تلفزي، معتبرا نفسه قد ملأ الدنيا

وشغل الناس، لكنه ومع ذلك، يفترض به النأي عن لغة الأبراج العاجية المتعالية، خصوصا إزاء مبتدئ يتلمس حظوظه الأولى مع الكتابة؛ ومهما بلغ امرؤٌ منا درجة من درجات الكمال،فالتمام لا يعقبه سوى النقصان، والكمال نفسه، بتعبير الفرنسي «بليز باسكال»، لا يخلو من عيوب .

بئرٌ مُعطَّلةٌ وقصرٌ مَشيدٌ

ودّع الفاروق عمر بن الخطاب أحد وُلاَّته سائلا إياه قبل المغادرة: ماذا تصنع إذا جاءك سارق؟ فكان جواب الوالي على البدَهِيِّ والمحفوظ: "أقطعُ يده يا أمير المؤمنين !"، لكن عُمرَ، صاحب النظرة النافذة والعميقة، ردّ بحزمه المعروف قائلا:" أنا من يقطع يدك لو جاءني جائع أو عارٍ !".

ارتباطا بما تعرفه المنطقة العربية من توترات وتصدعات على مستوى النسيج المجتمعي السفلي[1]، وارتباطا بما خلّفه "الربيع" العربي من نتائج عكسية في أغلب الدول الرافعة لشعار الثورة المسلّحة، والكفاح والنضال ضد الاستبداد والفساد السياسيين والاقتصاديين؛ جاء الحراك الشعبي في الريف المغربي خلف زعامات شابة، لم تستطع إخفاء وتورية ما مارسته الحكومات المتعاقبة على المنطقة،طيلة عقود، من ظلم وقهر وتهميش، إضافة إلى ما يعانيه هؤلاء وأمثالهم من ظروف معيشية تكاد تكون دون الخط الأحمر المسموح به عالميا _ وأخلاقيا حتى _ للعيش الكريم، فكان أن انتفض الريفي _ متجاوزا مجموعة من

(1) - نقصد هنا بالمجتمع السفلي الطبقات الدنيا من الشعوب، طبقات المياومين والحرفيين والمأجورين أصحاب الدخل المتدني.

الثوابت السيكولوجية والاجتماعية الموروثة _ باحثا عن وطن آخر اسمه " الخبز والكرامة ".

لم تكن المناطق المغربية الأخرى جنوبا وشمالا بمنأى عما طال الريف من تغييب وإقصاء من أجندات الدولة وخططها التنموية، ومن مشاريعها الاستثمارية التي اقتصر نفعها ومردودها ولازال على أشخاص ذاتيين وعلى فئات قليلة تنتفع بكل شيء، بعيدا عن القطاع الكبير من الشعب الذي ظل منذ عقود يقتات على الفتات، وكأنه، أي الشعب، لا يستحق من مكاسب مشاريع الدولة المخصخصة درهما واحدا، بالرغم من كونه الآلة العاملة والمُنتجة لرأس المال ذاك دون أدنى شك، وكم كان الطبيب الأرجنتيني إرنستو جيفارا صادقا حين قال:" ما الذي يستفيده المجتمع إذا ربح الأموال وخسر الإنسان؟". هكذا وجد المستضعفون أنفسهم تُرسًا في "ماكينة" الدولة التي تغوَّلت وسرقت جهد الساعد وعرق الجبين، وصادرت قوة الشباب ونضارته، فاضحوا شيبا بلا ماضٍ وبلا حاضر وبلا مستقبل، منتظرين أن يصافحهم الموت أي لحظة.

إلى هنا على الأرجح لم نأت بجديد، فالواقع العربي يكاد يكون مستنسخا، بل هو ذاته في كل قُطر وإقليم، ولعل الصغير والكبير مطّلع عليه ويعرفه كما يعرف عدد أصابع كفّه، وقد أصبح مأنوسا كذلك إلى درجة أنه يجري للأسف في كل عربي مجرى النَّفَس والدماء !

منذ وَعَى الإنسان جدّيًا الاهتمام بالإنسان ككائن يستحق الحياة الكريمة على هذه الأرض، ومنذ بدأ بصكّ المواثيق والعهود الدولية ونشر ثقافة حقوق الآدميين، خصوصا بعدما رُدِمَ الملايين تحت التراب بُعيد الحربين العالميتين؛ أخذت السياسات التدبيرية والتنموية تتخذ شكلا آخر، إذ بدأت الحكومات تردم الهوة بينها وبين الشعوب المرتبطة بها، وبدأ المسؤول يقترب بشكل سريع من المواطن، سامعا نبضه،ساعيا لتلبية حاجاته، وتأمين حقوقه، وتوفير ضرورات عيشه، مستذكرا دائما العقد الاجتماعي الذي يربطه به، الوضع الذي أفضى _ إضافة إلى ظروف أخرى _ لاحقا إلى نشوء ما يسمى بدول "الرعاية الاجتماعية" في الغرب تحديدا. ودولةالرعاية الاجتماعية كما يشير إليها المصطلح تهدفبالأساس إلى تأمين مستوى مناسب من الحياة لكافة الأفراد، تحقيقا للتوازن والاستقرار الاجتماعيين، وهو الواقع المنتفي في الكثير من البلاد العربية.تعددت المراجع والبحوث التي اتخذت هذا المصطلح _ الجديد نسبيا_ كموضوع للبحث وللدراسة، سعيا إلى تأسيس قواعده وتشييد معماره، وبالتالي فتح المجال لتطويره ونشره على أوسع نطاق، خصوصا وأن المرحلة الحرجة التي بلغتها البشرية في يوم الناس هذا، ومع تواتر القلاقل هنا وهنالك، ومع تزايد أعداد المنكوبين عالميا جراء الفقر والحروب في ما يسمى بدول عدم الاستقرار: تقتضي إعادة التفكير في

الإنسان كإنسان يستحق كل أنواع الرعاية والعطف والمساعدة، تحقيقا لآدميته غير المشروطة، كأدنى ما يمكن منحه إياه، تجنبا لإدراجه على الأقل في مملكة الحيوان !

ومن المؤلفات التي يمكن الإشادة بها في هذا السياق، كتاب "دولة الرعاية الاجتماعية في القرن العشرين، تجارب الأمم المتقدمة في تكريم الإنسان" لمحرريْه جون ديكسون وروبرت شيريل، مُعرّفيْن_ بمعية مؤلفين آخرين _ في ثنايا الكتاب بدولة الرعاية وبالشروط اللازم توفرها في دولة ما لتكون أهلا لهذا التوصيف، وهنا أشار المؤلفون إلى نماذج حازت قصب السبق في هذا المجال واستطاعت أن تؤكد حضورها في الساحة الإنسانية قبل الاقتصادية والسياسية، ونذكر أستراليا وكندا وفرنسا والسويد والمملكة المتحدة وأمريكا كدول متقدمة اقتصاديا، والبرازيل وزيمبابوي كدولتين ناميتين. ولعل ما يثير الاهتمام والدهشة حقا في الكتاب، إجماع مؤلفِيهِ على فكرة مفادها " إن الرعاية الاجتماعية هي أقوى أشكال تقدم الدولة "، وهو المعنى ذاته الذي أومأ إليه المؤرخ المصري حسين مؤنسفي كتابه الحضارة، زاعما أن رغيف خبز وآنية من الفخار أنفع للإنسان من الأهرامات ومن قصور فيرساي ومن استكشاف القمر. ومما يمكن به أيضا تعضيد أفكار كتاب ديكسون وشيريل، ما أورده مجموعة من المؤلفين في كتاب " دولة الرفاهية الاجتماعية "، وهو

دراسة مستفيضة بسطت كذلك نماذج دول يمكن أن تدخل ضمن قائمة دول الرعاية، ونقصد الصين وكوريا الجنوبية وماليزيا، من خلال ما انتهجته من سياسات تنموية تتخذ المواطن قلبها ومركزها، إضافة لبعض الدول الخليجية كالإمارات وقطر وسلطنة عمان وأخرى، الساعية بمداخليها النفطية إلى تحقيق نوع من الرفاه الإجتماعيوجودة الحياة، وكذا تمكين المواطن من بلوغ الحد الأدنى من مؤشرات السعادة؛ وهنا لابد من الإشارة لمبادرة دولة الإمارات التي أنشأت وزارة خاصة للسعادة، صانعة التفرد في العالمين العربي والإسلامي.

يهمنا هنا بعد سرد بعض نماذج دول الرعاية في الشرق وفي الغرب ألاّ يربطها القارئ بقوة هذه الدولة أو تلك اقتصاديا فقط، باعتبار الاقتصاد المحرك الأول للأمم، والدليل، نموذج زيمبابوي الأفريقية الفقيرة التي استطاعت منذ عهد قريب _ بعد تحرّرها من الاستعمارالبريطاني سنة 1965 _ تحقيق ارتفاعات ملموسة في مؤشرات التنمية على أكثر من صعيد؛ من ثمَّ لا يمكن بأي حال من الأحوال تسويغ التقتير والبخل على الشعوب، والتضييق على أرزاقهم ومعايشهم بحجة الدولة "الفقيرة" أو بذريعة قلة الثروات والأرض التي شحت مواردها، فهذا لعمري عذر أقبح من زلة وداهية ما لها من واهية. فقد أشار المؤرخان الاقتصاديان دارون أسيموجلوو جيمس أ.روبنسونفي كتابهما

" لماذا تفشل الأمم؟ أصول السلطة والازدهار والفقر"،مؤكديْن بشكل واضح أن الجغرافيا أو الثقافة أو عدد السكان أو طبيعة الأرض أو عقيدة الأجداد لا يمكن أن تكون أسبابا موضوعية لترفع دولة ما يافطة فشل شامل، مبررة موقفها ذاك بكون ما سِيقَ من معطيات طبيعية أو تاريخية أقدار محتومة نزلت من السماء، ولا يمكن تلافيها ! بل إن "السياسات الحمقاء" المنتهجة من قبل الحكومات والمؤسسات هي ما يجعل هذه الدولة أو تلك فقيرة أو غنية، دون الحاجة إلى التحجّج بسرديّات صبيانية لا يصدقها أحد.

وعليه، لا يبدو من اللائق أخلاقيا واجتماعيا ودينيا أن يظل إنسان الألفية الثالثة صارخا في بئر مُعطَّلة يستجدي ويتسول رغيفالبنيه أمام بُرج فخم وقصر مَشيد، فالإنسان مهما كان، وكما قال الأديب الفرنسي ألبير كامو، هو الكائن الوحيد الذي رفض أن يكون حيوانا !

رسائل إلى الله...

لم يكن من اللائق أبدا أن نسخر أقلامنا وأوقاتنا وبُنَيَّاتِ أفكارنا لتوافه الدهور وسفاسف الأمور، خصوصا ونحن في ظرفية تَحتَّم منَّا فيها أن نقف وقفة تأمل، ونتساءل بشكل جدّي عن جدوى كل ما أنفقناه وما ننفقه في تحليلاتنا وتخطيطاتنا الاستراتيجية وبحوثنا الاستشرافية ورؤانا الموسومة دائما بالحكمة، بل وفي كل الجهود المبذولة من لدن المراكز البحثية المشهود لها بالتخصص في كافة المجالات المعرفية عبر رقعة الوطن العربي الشاسعة، تحت مسمياتها الرنانة التي تبعث على الافتخار والاعتزاز، وتحت الأكلاف المادية الباهضة – طبعا - لمسوداتها التي تُبْدِئ وتُعيدُ كل مرة على شكل حلقات حلزونية لا تنتهي.. كل هذا العمل الجبار ودار لقمان باقية وساكنة على حالها المتصدع والمكروث، في ظل وطن تاريخه ماضٍ ماثلٌ في حاضره بتعبير المغربي "عبد الله العروي"، حاصدا السّواد ومحتضنا بين عطفيه زمن الخسارات والأخطاء، محيلا أيام الناس المشهودة أيام فوضى وعشوائية وحروب دموية طاحنة، حينا باسم السياسة والمصالح، وحينا آخر باسم الدين والمذهب والطائفة والمعتقد... الأمر

الذي يدعونا لمساءلة الذات مرة أخرى: لماذا عجزت كل العقول العربية والإسلامية وشعوبهما عن تجاوز أزماتها المركبة على مدار الأجيال المتعاقبة، بالرغم من نداءات "الطهطاوي" و" الكواكبي" و"الأفغاني" و"محمد عبده " و"مالك بن نبي" وغيرهم، وعلى ما تزخر به كتبنا السماوية وكتبنا التنويرية من نداءات التضامن والتسامح ونبذ كل أشكال العنف والإقصاء؟؟ أو لنقل بشكل أكثر غرابة وإثارة: كيف انخرط المعمِّرون لأرض الأنبياء والعارفين بالله والتنويريين في الانحطاط، واستقام أمر – طبعا ليس إلى حدود الكمال – من عمَّروا أرض الفلاسفة والملاحدة والمتحررين اجتماعيا وثقافيا؟؟ هل نحتاج لجرعات إضافية من التنوير ومن التحرر الاجتماعي والثقافي؟؟ أم نتبادل مع الآخر المواقع الجغرافية، لعل التراب والمناخ ينطويان على سرّ ما؟؟ أم نسمح لأنفسنا أن نتعبقر (من العبقرية) ونحاكم البيولوجيا، عسانا نعثر لدى الآخر على مركبات جينية تساهم عمليا في تجاوز حاملها لماضيه الأسود، عوض جيناتنا " الأنانية " – بتعبير " دوكينز" – التي خربت يومنا وأمسنا؟؟ أم نسلّم بمقولة الأديب البريطاني رودريار كيبلنغ: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا"، ونصمت؟؟

طبعا،الكل متيقن من أننا طرحنا هكذا أسئلة منذ عقود خلت،إلى أن صارت أيقونات خالدة محفورة في ذهن كل عربي وكل مسلم، كما أننا متأكدون من كوننا سمعنا آلاف الإجابات عنها من مفكرين ومثقفين تعددت مشاربهم وخلفياتهم الأيديولوجية،وهي إجابات، على اختلافها، رامت -عن حسن نية أصحابها- وضع قطار التنمية بأبعادها المختلفة على سكته الملائمة، وكذا لمّ شتات أوطان مترامية الأطراف، ومحاولة صهر تعدديتها الهوياتية والحضارية والثقافية داخل بوثقة التاريخ المشترك والدين واللغة العابرة للحدود الترابية..لكننا مرة أخرى، نضطر كالعادة أن نردد مع " دعبل الخزاعي" قوله:

ما أكثَرَ الناسَ لا بل ما أقلَّهُمُ === اللهُ يَعلمُ أنّي لم أقُلْ فَنَدَا

إنّي لأفتَحُ عيني حينَ أفتحُها === على كثيرٍ ولكن لا أرى أَحَدَا

لعل المؤرخ " أرنولد توينبي" لم يكن يقصد قطعا أمتنا المتهالكة حين قال: " حينما تنحدر الأمة لابد أن يصطدم رأسها بقاع البئر، بعد ذلك تكون إغفاءة واستيقاظ، بعدهما يكون تسلق من جديد"، لأنها وبكل بساطة أمة بلغت قعر البئر رافضة التسلق من جديد، مستمتعة للأسف بتركيب قطع الظلام، وبمضغ آثار وأمجاد الأسلاف والافتخار

بقول الله تعالى: " وكنتم خير أمة أُخرجت للناس..الآية" وترديده بزهو في المجالس دون التعمق في مقصده الكوني النبيل.كما أن الفيلسوف الروسي "نيكولا بيرديايف" لم يكن لِيُعَرِّجَ على أمتنا النائمة حين عبّر في كتابه "معنى التاريخ" قائلا: " عندما تتراجع الأمم وتنحدر يرهف فيها الحس التاريخي والنقدي للتاريخ.". وكيف يتأتى في نفوسنا هذا الحس المرهف ونحن كلما استدعينا تاريخنا الماضي إلا وانتقينا منه الأسوء والأسود؟ فمن داحس والغبراء إلى بُعاث، ومن الجمل إلى صفّين، ومن كربلاء إلى مجازر الحجاج... وهي نفس المجازر والوقائع التي تتكرر بين ناظرينا الآن شئنا أم أبينا، طبعا مع تغيير في الزمان وفي أشكال الأسلحة، مع الحفاظ على نفس مواقع المعارك الجغرافية والإبقاء أيضا على نفس السلالات المتناحرة، فالأمر برمته لا يعدو أن يكون نقلا للمعارك من الأجداد إلى الأحفاد بصورة أكثر شراسة وأكثر دموية.وهذا مآلٌ منطقي ونتيجة منتظرة إلى حد كبير، فالأمة التى لا تدرس تاريخها كما قال "جون سانتيانا"، تغامر بتكرار نفس أخطائه، أو بتعبير المفكر "علي شريعتي": " لا يدرك قوانين المستقبل إلا من أدرك قوانين ماضيه وتاريخه ."

فلنفترض أن الحبر الذي كُتب به تاريخنا عبارة عن تعصب سائل كما يحلو لمارك توين أن يعبر، وهَبْ أن مواضينا البشرية لطخت ببقع

سوداء مخجلة، فالآخر الغربي كذلك قد مُلئت صحائف ماضيه بحبر أشد سوادا وحلكة، بل نستطيع أن نقول بيقين ثابت أن مواضيه تبعث على الحسرة والخجل وأحيانا على الشفقة، بيد أنه استطاع في غضون عقود يسيرة وبمجهود عقول متنورة معدودة أن ينفلت بشعوبه من ضيق الماضي إلى سعة الحاضر، ومن إقصائية الطائفية والتمذهب والميز العنصري والعرقي إلى الإعلاء من شأن الإنسان كذات مستقلة لها حقوق وعليها واجبات، الأمر الذي مكَّنَهُ ببساطة من تملُّك أدوات الحضارة والثقافة والمدنية، معتمدا على تحرير العقل وارتياد آفاق الإبداع، دون الحاجة إلى التقليد والاستيراد والاقتباس.ولقد صدق "إيمانويل كانط" ملخصا فلسفة التنوير الغربي – في شقها التفاؤلي على الأقل - قائلا: " بدأتُ حياتي ظانًّا أن رُقي الإنسان وشرفه رهن ما تحصّل لديه من المعرفة، إلى أن استيقظتُ وعلمتُ أن الإنسان يكون كذلك بمقدار ما يكون إنسانا،فبدأتُ أعلّم نفسي كيف أحترم بني الإنسان ."

رسمت البشرية عبر أصقاع المعمور لوحات عريضة ملونة بحقول من الدماء والعصبية والعنصرية بدعوى السيطرة على العالم وهيمنة السلالات الأقوى والفضلى وتحقيق مصالحها المختلفة، إلى أن جاءت الأديان السماوية والحملات التنويرية لترفع العنف والخلافات

الدنيوية المحقورة والدنيئة، التي تضع نفسها على مسافة بعيدة عن منطق الأخلاق الرامي لجعل الكائن البشري بكل تلاوينه خلقا يستحق الاهتمام والاحترام اللائقين به.أما كل أشكال التطاحنات المتدحرجة على سفوح التاريخ حتما لم تكن بسبب الدين أو العرف أو الثقافة، إنما بسبب استغلال هذه المعطيات بشكل خاطئ، وهي الفكرة المحورية التي ناقشتها باقتدار الكاتبة "كارين أرمسترونغ" في كتابها "حقول الدم: الدين وتاريخ العنف". ويحق لنا إذن في ذيل السطور هاته أن نفكر مع البوسني "علي عزت بيكوفيتش" الذي اقترح جائزة نوبل على من استطاع الإجابة على سؤاله المُعجِب: " كيف يكون الدين الإسلامي بنصوصه أكثر الأديان حثا على النظافة والطهارة، وفي نفس الوقت أكثر الأديان حثا على الانضباط والترتيب، وأمته من أكثر الأمم قذارة وعشوائية؟؟"، فإن عجزت أمتنا المتصدعة إذن عن وضع إجابات لأسئلتها المصيرية،أقصد إجابات مقنعة ذات فاعلية على أرض التطبيق، قادرة على نشلها من غيابات الجب وقعور التخلف والتشظي،و إن اختارت شعوبنا الاستئناس بجراحها والانزعاج من وجود أطباء يحرصون على عافيتهم بتعبير "روسو"، فإننا مدعوون آنئذ أن نتجاوز بني البشر ونبعث أسئلتنا رأسا إلى الله في رسائل عبر البريد العاجل، كخيط نور أخير نهتدي به، قبل أن نتبنى منطق "

شوبنهور" المشؤوم والمختصر في مسكوكته:" الموت شيء جميل، والأجمل منه أن لا نُولَد أبدا " !!!

العيش المشترك

عذرا لقد أخطأت القناة يا أمي !!

جلست كالعادة بوعي غائب أشاهد تقلب القنوات العربية أمامي، وأمّي البدوية البسيطة تبحث عن القناة التي تربطها بالتراب والهوية.. وقد تأتى لها ذلك بعد ضغطتي إبهام أو ثلاث.. والمحصّلة برنامج تنافسي في الطبخ المغربي، تحت يافطة " ماستر شيف المغرب ". "مغاربة على الأقل يعرفوننا ونعرفهم" ... هكذا قالت البدوية الفاضلة مبتسمة !! وبعد أزيد من ساعة ونصف من استحضار الوعي، تأكدت بلا تمحلات ومداورة أعناق الكلام أن البرنامج موجه لعشرين بالمئة فقط من الشعب، أما البقية فلا تعرف مطابخهم البسيطة إلا ثلاث أطعمة رخيصة أو أربعة على الأكثر، وطبعا، دون تكلف اللعب بالشوكة وبالسكّينة.

سأعود إلى القرن الثامن عشر، مستحضرا موقف "ماري أنطوانيت" زوجة " لويس السادس عشر" ملك فرنسا من الشعب الثائر أمام قصر فيرساي، ضد الفقر والجوع والضرائب التي أثقلت كاهل البسطاء وأحرقت جلودهم.."ماري" التي استغربت من تصرف هذا الحشد الشعبي الهائل "الهمجي"- بتعبيرها- والذي لا يمت بأدنى

صلة بالفرنسيين العارفين بقواعد البرستيج والإتكيت !! غافلة عن الجوع الذي تتكسر أمامه كل القوانين والأعراف البشرية، مستهزئة بهم في آخر المطاف بقولتها الشهيرة: " إن عَدِمَ الشعبُ الخبزَ فليأكلوا البسكويت !! ".

لا تهمني القصة بقدر ما تهمني وقاحة "ماري" التي أخطأت تقدير الواقع وقراءته قراءة سليمة.أولا لأنها تجهل معنى الفقر والجوع قطعا كونها انتقلت من بلاط النمسا إلى بلاط فرنسا، ثانيا لأنها تهرف بما لم تكن تعرف، ظنا منها أن البسكويت أخفض سعرا من الخبز، وثالثا كونها تناست أن ما انغمست فيه من شهوات البطن كان من ضرائب حفنة الصراصير تلك...ومن هنا أعود إلى القرن الواحد والعشرين، وإلى وقاحة تلفزيون الواقع _ كما يهرطقون _ حيث ادعى مقدّمو البرنامج الذين أفنوا سنيَّ أعمارهم في الدول الأوربية أن المنافسة ستكون بإعداد أطباق مغربية تفوح منها رائحتا أصالة وهوية البلد.. بيد أن البرنامج لم يكن إلا ليرهب البسطاء نفسيا وليسيل لعابهم، كما لم يكن إلا ليُعَرِّفهم على مأكولات لم ولن يحلموا يوما أن تلمسها ألسنتهم سوى إذا أنزل الله مائدة أخرى من السماء، أو إذا تيسر لأحدهم أن يُدعى لمائدة أحد أغنياء أو وجهاء الشعب، وكلا الأمرين مستحيل !!

فعلى من تفترون كذبكم وأوهامكم؟؟ على القنوات الفضائية الأخرى، نافخين ريش الطاووس أمامهم، مدعين أن الشعب المغربي يعيش عيشة آدم في الجنة قبل استخلافه في الأرض؟؟ أم على أصحاب المسؤولية والقرار، ليعلموا وليتأكدوا أننا في رفاهية من عيشنا، نأكل أفخر الأطعمة ونركب أفخر السيارات ونتقدم تصنيف الدول الأكثر رفاهية وسعادة؟؟ أم على عميان الشعب، أولئك الذين يسهل أن تنطلي عليهم الحيلة إلى حد كبير؟؟

إميل دوركايم في كتابه " التربية الأخلاقية " يقول: " ضميرنا الأخلاقي لم ينتج إلا عن المجتمع ولا يعبر إلا عنه.." فكذلك على الأقل ينبغي أن تكون البرامج التي يفترض بها أن توجه إلى الطبقة الأدنى من الناس، أن تعبر عن المجتمع بكل تفاصيله المادية والمعنوية، ولا تستهدف إلا فئة النخبة الغنية التي تتحدث لغة غير لغة الغالبية وتلبس لباسا غير لباسها وتأكل طعاما غير طعامها.. وتدّعي بملء بهتانها بعد ذلك أنها برامج تحترم أذواق المشاهدين !!

إن الهوة الواسعة التي صنعتها النخبة بينها وبين البسطاء من الشعب جعلت الطرف الأول يجهل كل شيء تقريبا عن أحوال الطرف الثاني، تفاصيل حياته اليومية من مأكله ومشربه ومركبه وسقف أحلامه وطريقة تفكيره وأمور شتى..حتى أن النخبة تظن أن قوانين

مجتمعها المغلق هي قوانين الكون بتعبير الأديب " برنارد شو" . وما دامت الجسور مغيبة بين الطرفين، فالمجتمعان سيبقيان معزولين ثقافيا كما عُزِلا اجتماعيا..وهنا، ومن المنطقي إذن أن تغيب الحقيقة بينهما وتغيب ما أسماها "مارتن هايدغر" " لغة الوجود المشتركة ".

فكما سقطت شاعرية الشاعر الكبير " أحمد شوقي" في تصوير معاناة الطبقة المصرية الفقيرة خلاف مجايليه الذين خبروا وذاقوا من الفاقة الكثير، سقطت عبارة "ماري أنطوانيت" في قمامة التاريخ...وكذلك ستسقط كل صورة ملونة بألوان فاقعة لا تعرفها عيوننا المهيأة لاستقبال الألوان البسيطة فقط ..كما ستتحطم كل الشاشات المتعالية على تضاريس الواقع والمنطق.أما الكذب ما هو إلا حقيقة أُجِّلَ جلاءُها وظهورها إلى حين.. وكما قال "فريدريك نيتشه": " لا يؤسفني أنك كذبت علي، ولكن يؤسفني أنني لن أصدقك مرة أخرى ".

فيا أمّي الفاضلة، هلا بحثت عن شاشة تعرفنا ونعرفها تناسب تجاعيد وسُمرة أوجهنا،مرآة تناسب خبزنا الحافي الأسود المدهون بقطرات من زيت الزيتون،والمبلل بقطرات من الشاي،مرآة تناسب أصابعنا المغطاة بتراب زقاقنا البسيط،مرآة تناسب أكواخنا غير المسقوفة،تناسب أسمالنا المهترئة والمرقعة في أحسن الأحوال،مرآة

تناسب قوانيننا غير المعقدة المجموعة في دستور من صفحة واحدة التي تمنحنا الحق والعدالة والإنصاف..،مرآة تناسب أقدامنا الحافية من أحذية موشومة بماركات عالمية،مرآة تناسب موسيقانا القروية المعزوفة بآلات بدائية رخيصة،مرآة تناسب ملاعبنا الضيقة غير المعشوشبة، مرآة تناسب بِرَكَنَا ومستنقعاتنا التي تقينا حرّ أشعة الشمس الحارقة، مرآة تناسب حدائقنا الطبيعية التي نبتت من تلقاء نفسها ووظبت من شكلها دون أن تمتد إليها كفٌّ بستاني محترف، مرآة تناسب مصابيحنا الصفراء التي تجود بنورها يوما وتبخل به أياما... فاحترسي يا أمي أن يُخطئ إبهامك القناة مرة أخرى، فأولئك بشر لا يشبهوننا ولا نشبههم، لا يعرفوننا ولا نعرفهم.. يا أمي:

لا يعرفُ الفقرَ إلاَّ من تجرَّعَهُ // وذاق من لفْحِه النيرانَ واللهَبَــا

فإن تحدَّثَ عنهُ الناسُ فلسفةً // قولي لهم: ليْتَكُمْ لمْ تفْتروا كَذِبا!

قُفّةٌ وامرأةٌ ورجلُ أمن..

كتب الفيلسوف الفرنسي فرانسوا فولتير ذات مرة قائلا: "من الممنوع أن تقتل، لأنه سيتم معاقبتك بسبب جريمتك، لكن في حال قتلت كثيرين من الناس فسوف تنجو من العقاب، بل سيتم تكريمك لأنك بطل في الحرب !". المقولة على ما تحمله من حقيقة أثبتتها الوقائع التاريخية، بل الوقائع اليومية عبر العالم؛ تحمل كذلك كمّا هائلا من المرارة والأسى، كأنما أصبح الإنسان كائنا رخيصا إلى حدّ أن يُتباهى بقتله وإفنائه، وإذلاله وحيونته في أحسن الأحوال، ورفع هذا "المبيد البشري" إلى مثابة البطل القومي والأسطورة التي لم يجُد التاريخ بمثلها !

لم يكن لهذا الحديث معنى لولا ما رأته عيناي في أحد التسجيلات المصورة على شبكات التواصل الاجتماعي، الذي يُظهر ببشاعة كيف ألقى رجل أمن بإحدى بائعات القفف على الأرض، بعدما نازعته بشدة قففها المعروضة للبيع على الرصيف. مشهد يتكرر على مدار الثانية والدقيقة عبر ربوع الوطن، ألفته العين والذاكرة ووعينا الجمعي، حتى أننا من باب المزاح، حين نجد إحداهن تعرض سلعة رخيصة على

رصيف ما، نبحث تلقائيا عن ذاك المحسوب على رجال الأمن، وننتظر متى سيهوي على أم رأسها بعصاه الجهنمية، طاردا إياها، ومستوليا على ما تعرضه للفقراء أمثالها، ممتثلا قول النابغة الذبياني:

تَعْدُو الذئابُ على من لا كلابَ له // وتتَّقي مِربَضَ المُستأسِدِ الضَّاري

صدق الألماني فريدريك هيجل حين أكد على مسألة توسع حرية الدولة على حساب حرية الفرد، منبّها لآليات تضييق الدولة على الأفراد، مُلمِّحا في نفس الوقت_ قبل الألماني هربرت مركيوز _ بشكل غير مباشر إلى ما عرف فيما بعد بالدولة التوتاليتارية أو الشمولية، حيث لا حرية إلا للدولة، ولا حرية للفرد إلا في الدولة، كما عبرت عن ذلك أدبيات الأنظمة الموسولينيةوالهتلريةوالستالينية عقب الحرب العالمية الأولى، ممهدة الطريق أمام " لا شيئية " الإنسان، وتحوله عبر مجموعة من العوامل إلى إنسان " مهدور" الوعي بالذات ومهدور الإرادة الحرة بتعبير مصطفى حجازي. جملة أسباب جعلت مواطن اليوم، وهو تحت تحكّميّة المؤسسة والنظام، يسعى في أقرب فرصة إلى إفراز سلوكات عدوانية ضد الدولة، ممثلةً في مرافقها العمومية وفي موظفيها، وإلا سعى هذا المواطن جاهدا إلى مغادرة أرض الوطن، هاربا نوعا ما من كل ما من شأنه أن يُحيله إلى كائن من الدرجة الأخيرة في سلّم الكائنات الحية . ولله در الإمام الشافعي قائلا:

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا // وَلاَ تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ الأَهْلِ فِي حُرَقِ

فالعنبرُ الخامُ روثٌ في مواطنــهِ // وَفِي التَّغَرُّبِ مَحْمُولٌ عَلَى الْعُنُــقِ

فماذا يعني إذن أن يكون رجل الأمن أول من ينشر الرعب بين الناس؟

إذا كان من المفترض في المؤسسة الأمنية،بلا قيد ولا شرط، السعي بكل ما تملكه من ترسانة لوجستية وبشرية إلى حماية المواطنين من كافة أشكال الظلم والاعتداء والتعسف، باختصار، حمايتهم ممن ينتهك ويعبث بحقوقهم وبحرياتهم، وإنصافهم أمام المعتدي والظالم كائنا من كان؛ فكيف تشتغل هذه المؤسسة إذن عكس ما هو منوط بها من مهام؟ وكيف يسمح رجل "الرعب" هذا أن يضرب عرض الحائط بكرامة امرأة عزلاء وسط جموع بشرية كثيفة لا تملك من أمرها إلا أن تحدجها بأبصارها. فإذا كانت هذه المواطنة من المغفلين، فحتما القانون لا يحمى ذاك الصنف من الناس، وإذا كانت من الفقراء _ وهي منهم _ فليس ثمة في بنود الدساتير والنصوص القانونية ما يجعل أمثالها في مأمن من اليد التي تبطش بكل شيء. وإذا كانت الحرية هي الحق في أن تعمل ما يبيحه القانون كما عبر عن ذلك مونتيسكيو، القائل في معرض آخر: "القانون يجب أن يكون مثل الموت الذي لا

يستثني أحدا". ففي ظل غياب قانون عادل يحمي المستضعفين، فمن باب أولى أن تغيب الحرية كذلك؛ وفي نهاية المطاف، لمن نشكو مآسينا إذن؟

ينبغي كما قال الإغريقي بوزانياس أن يكون للقانون سلطة على البشر، لا أن يكون للبشر سلطة على القانون، وإلا فما فائدة نصوص قانونية مُفرغة من القدرة على صناعة قرارات حاسمة تستطيع دفع الباطل وإحقاق الحق، دون أن تضع نُصب أعينها درجة المشتكي ودرجة المظلوم في السّلّم الاجتماعي، أو ضمن تصنيفات أخرى تضيع فيها حقوق الأفراد.كما ينبغي أن يُعامل القانون _ بتجرد_ هذا المواطن أو ذاك معاملة لائقة بآدميته، حتى وإن ثبتت عنه على سبيل الافتراض تهمة ما. وهنا تجدر الإشارة إلى ارتباط الأخلاق بالقانون بشكل أو بآخر، بل وتسامي الأخلاق على القانون،أولا بحكم أن البشرية عرفت الأخلاق منذ بداياتها الأولى، وكانت الفيصل في العلاقات البشرية قبل ظهور القانون بشكله الرسمي والمؤسسي في الحضارة الفرعونية والسومرية والبابلية وحضارات شرق آسيا،ثانيا لكون الأخلاق أعمّ وأشمل، ولا نشك أبدا في كون القوانين قد أُنجبت من رحم الأخلاق، وبهذا المعنى يفترض أن تكون كل قاعدة قانونية خُلُقًا ما، وإلا صُنفت

ضمن خانة الجور والاستبداد والتعسف، خلاف ما ادعاه أحد فقهاء الرومان زاعما أن ما يسمح به القانون لا يكون دائما موافقا للأخلاق !!

رجوعا إلى القرن السابع عشر، تحديدا ونحن نقرأ " الليفياتان "، نجد توماس هوبز يؤكد أن جوهر السلطة هوسيادة الدولة،إذ يعتقدأنه وفي أفضل حالاتها فإن السلطة سوف تُمارس من الموقف المفرد للسيادة، وهو المنظور الذي لم ينكره ميشيل فوكو، لكن مع تحفظ هذا الأخير طبعا على السلطة السيادية حين تجيز لنفسها استعباد الأفراد وانتهاك آدميتهم؛ في حين يُوجِز الألماني ماكس فيبر سلطة الدولة في "احتكار الاستخدام المشروع للقوة البدنية"، مع عدم المجازفة طبعا بقبول المنظور الفيبري على المطلق هكذا، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال شرعنة استخدام القوة البدنية بأي شكل من أشكالها مهما كانت الظروف، ومهما كانت درجة اضطرار الدولة لممارسة سلطتها في الشارع أو داخل مؤسساتها. وعليه تكون السلطة _ كما يزعم ميكيافيلي_ خارج المنظور الهوبزي والفوكوي والفيبري المُسالم قاسية وغاشمة وظالمة ومستغلة، هذا من حقها ولو لم تفعل ذلك لاستضعفتها الجماهير وسحقتها ! وهو المنظور المعتمد على نُطق واسعة من لدن أنظمة عديدة، وهو ما دعاه جون كينيث في كتابه

(تشريح السلطة) "الكيفية القسرية"، باعتبارها أسهل الأساليب لتكميم الأفواه الناطقة !.

قد نتفق جميعا على سلوك رجل الأمن هذا،كونه سلوكا منافيا للقانون وللأخلاق جملة وتفصيلا، وقد نتفق كذلك على صمت الدولة المستهجن إزاء ما يتكبده مواطنوها على يد آلتها العسكرية والأمنية من تجاوزات تتخطى حدود اللاممكن أحيانا. ومن العجب اعتبار هذا العسكري للكائن الآدمي "مخلوقا" معدوم القيمة والأهمية، تماما كأنه أمام حشرة ضارة تستحق الدعس دون أدنى تفكير. هنا أستسلف كلمة صاحبة الأوسكار الأمريكية جين فوندا قائلة: " نحن نتعامل مع عالمنا كأننا نملك آخر في حقيبة السيارة "،وكذلك يتعامل صاحب البزةالعسكرية مع الماثل أمامه كأنه يملك آخر في كيسه !

لغة الضاد: عيد ميلاد أم حفل تأبين؟

من منا لا يتذكر أبيات «حافظ إبراهيم» مادحا لغتنا العربية ومنافحا عنها،بل ومتحسرا عما آلت إليه من أوضاع جعلتها تخجل من رفع رأسها وسط مثيلاتها عبر بلاد المعمور؛وقد أنشد قائلا في قصيدة طويلة:

أنا البحرُ في أحشائه الدُّرُّ كامنٌ /// فهل سألوا الغوّاصَ عن صَدَفَاتي

أيُطرِبُكُمْ من جانِبِ الغُرْبِ ناعبٌ /// يُنادي بوأدي في ربيع حياتي

أيَهجُرُني قومي عفا اللهُ عنهُمُ /// إلى لُغةٍ لم تتَّصلْ بِرُوَاةِ؟

سَرَتْ لَوْثَةُ الإفْرَنْجِ فيها كما سَرَى /// لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فُراتِ

ومن منا لم تأخذه الحميّة القومية على لغته _ بوصفنا محسوبين على الناطقين باللغة العربية_ كلما حان موعد الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر، الموعد الذي حددته اليونسكو كيوم عالمي للاحتفاء بلغة العرب، وهو اليوم الذي تم "الاعتراف" فيه بلغتنا ضمن اللغات الرسمية للأمم المتحدة (بالضبط في الثامن عشر من ديسمبر 1973)، خلافا لحال اللغات الأخرى التي لا تحتاج لاستجداء "اعتراف" رسمي من مؤسسة أو دولة، بما أن الاعتراف رهين بمدى قوة الفئة

الناطقة بهذه اللغة دون الأخرى اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، وإن كانت هذه اللغة حديثة العهد على مستوى التداول تاريخيا !! وهنا أجدني مضطرا لأن أرفع القبعة لابن خلدون على قوله:" إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بين اللغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم "، ولا أدل مما أوردناه سوى العناوين الكبرى لمواعيد الاحتفال باللغات الحية الأخرى التي تخلو من كلمة "اعتراف"؛ فمثلا، العشرون من آذار/مارس يوم اللغة الفرنسية، يوم دولي للفرانكفونية؛ والعشرون من نيسان/أبريل يوم اللغة الصينية، يوم لتخليد ذكرى «سانغ جيه» مؤسس الأبجدية الصينية؛ والثالث والعشرون من نيسان/أبريل يوم اللغة الإنجليزية، يوم لتخليد ذكرى وفاة الكاتب الإنجليزي «ويليام شيكسبير»؛ والسادس من حزيران/يونيه يوم اللغة الروسية، يوم لتخليد الذكرى السنوية لميلاد الشاعر «ألكساندر بوشكين»؛والثاني عشر تشرين الأول/أكتوبر يوم اللغة الإسبانية، يوم للاحتفاء بالثقافة الإسبانية. طبعا لن أسعى إلى تبييض وجه لغتنا العربية مستدعيا _ كما يفعل الأغلبية_ بعض الأرقام الإحصائية المقارنة بين عدد الجذور اللغوية في كل لغة، فرحين بالعدد الهائل الذي تحوزه لغة الضاد، وكذلك باستدعاء عدد الناطقين بها، والذي يضعنا في الصف الرابع بعد الصينية والهندية والإنجليزية؛ أما بعضهم فقد رفع سقف

الحماسة إلى آفاق عليا،مدعيا أن لغة العرب أقدم لغات العالم بل وأصلها كما ذهب إلى ذلك د مصطفى محمود في كتاب "الأسرار"،الأمر الذي يحيلنا قسرا إلى مسألة اللغة الأولى التي تحدث بها الإنسان منذ نشأته، المعضلة التي لم يُحسم في حلها إلى الآن، ولعل النظريات الأربع _ كما أوردها «د علي عبد الواحد كافي» في كتابه نشأة اللغة _ المتصارعة في إثبات مصداقيتها منذ زمن أوضح دليل على ذلك. فالنظرية (الأولى) تؤكد أن اللغة إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلّمه النطق وأسماء الأشياء، وقد ناصرها منذ القدم الفيلسوف «هيراكليت» اليوناني و«ابن فارس» في كتاب الصاحبي و«ابن جني» في كتاب الخصائص في العصور الوسطى، والأب "لامي" في العصر الحديث في كتاب فن الكلام، والفيلسوف «دوبونالد» في كتاب التشريع القديم. طبعا وهذا معتقد أغلب المسلمين بناء على آية "وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"[1]. أما النظرية (الثانية) فتقرر أن اللغة ابتُدعت واستُحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاضها ارتجالا، وقد ناصرها «ديموكريت» اليوناني و«آدم سميث» و«دجلد ستيوارت» وكثر من الدارسين والباحثين في

(1) - سورة البقرة، الآية 31 .

فقه اللغة. أما (الثالثة) فتزعم أن الفضل في نشأة اللغة راجع إلى غريزة خاصة زُوِّد بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وهذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به (الغضب،الفرح، الألم...)، ومن أشهر من ذهب هذا المذهب اللغوي الألماني «ماكس مولر» والفيلسوف «إرنست رينان». أما (الرابعة) أو ما يسمى بنظرية "البُو_وُوْ"، فتجزم أن اللغة البشرية نشأت من الأصوات الطبيعية (التعبير الطبيعي عن الانفعالات، أصوات الحيوان، أصوات مظاهر الطبيعة...)، وسارت في سبيل الرقي شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان، وقد لفَّ هذا اللّفّ كثير من فلاسفة ولغويي العصور الوسطى، ومن المحدثين كان أشهرهم اللغوي «ويتني» صاحب كتابي "حياة اللغة" و"اللغة ودراستها". لكن وإن حاكمنا وحاججنا كل نظرية على حدة، فطبعا سنكتشف أنها تخلو تماما، ولو على سبيل الإيماء والتلميح عن أدنى إشارة تؤكد أن الإنسان خُلق ناطقا بلغة الضاد، وهذا شأن النظرية الأولى أيضا، فالقرآن الكريم لم يُشر صراحة إلى أن الأسماء التي تعلمها "آدم" عليه السلام كانت بلغة العرب، إضافة إلى كون جمهور من فسروا آية تعلم آدم للأسماء، لم يجزموا البتة أن أسماء الأشياء كانت

من الوحي الإلهي بلغة عربية؛ فغليان الحماسة إذن ليس دليلا على تحقق المزاعم !! من جانب آخر توسّل بعضهم "مدح" المستشرقين للغتنا وثناءهم عليها كدليل على رفعتها وسموها بين قريناتها، فمادام الآخر قد أُغرم بها خطابة وبيانا وبلاغة فلا أقل _ نحن وارثيها _ من الافتخار بما تكتنزه من سحر وإعجاز؛ فهذا «لويس ماسّنيون» المستشرق الفرنسي في كتابه فلسفة اللغة العربية، كتب يقول: "لقد برهنت العربية على أنّها كانت دائما لغة علم، بل وقدّمت للعلم خدمات جليلة باعتراف الجميع، كما أضافت إليه إضافات يعترف لها بها العلم الحديث، فهي إذن لغة غير عاجزة البتّة عن المتابعة والمسايرة والترجمة والعطاء بالروح والقوّة والفعالية نفسها التى طبعتها على امتداد قرون خلت، إنها لغة التأمل الداخلي والجوّانية، ولها قدرة خاصّة على التجريد والنزوع إلى الكليّة والشمول والاختصار..إنها لغة الغيب والإيحاء تعبّر بجمل مركزة عمّا لا تستطيع اللغات الأخرى التعبير عنه إلاّ في جُمَلٍ طويلة ممطوطة ". أما نظيره الألماني «كارل بروكلمان» فيرى أن معجم اللغة العربية اللغوي لا يضاهيه آخر في ثرائه. وبفضل القرآن بلغت من الاتّساع انتشاراً تكاد لا تعرفه أيٌّ من لغات الدنيا؛ في حين أن المستشرق الهولندي « رينهارت دوزي» فقد بالغ نوعا ما، زاعما أن أرباب الفطنة والتذوّق من النصارى سَحَرَهم

رنين وموسيقى الشّعر العربي فلم يعيروا اهتماما يُذكر للغة اللاتينية، وصاروا يميلون للغة الضاد، ويهيمون بها. إن تعدد مزايا وخصائص لغتنا العربية، من حيث ارتباطها بالقرآن الكريم واعتبارها لغة وحي،و أقدميتها التاريخية،و معجمها المنداح والغني،و الإعجاب الغربي بها،وتعداد الناطقين بها..فكل عوامل القوة تلك ليست حسب رأينا مؤشرا ت على قدرتها على مجابهة التحديات المحيطة بها من كل جانب، خصوصا مع المد العولمي والتكنولوجي الذي استطاع طمس جانب مهم من الهوية العربية في صفوف الشباب تحديدا، بعدما ترسخ لديهم الاعتقاد شبه الصلب أن اللغتين الإنجليزية والصينية ستغدوان لغتي المستقبل، تبعا لاشتراطات العلم والاقتصاد والسياسة؛ إضافة إلى تنامي عدد المنظمات والمؤسسات الداعية إلى تحرير لغة المؤسسات التعليمية واعتماد "العامية" أو "الدارجة" كبديل تربوي، واضعين التجربة التركية نصب أعينهم، كما أن دعوة الأديب اللبناني « سعيد عقل» إلى تجاوز "الفصحى"، والمغربي« فؤاد العروي» ليست ببعيدة؛ فاعتماد لغة "العامة" من شأنه_ كما يدّعون_ خلق جو تواصلي أكثر مرونة وتلقائية، مما يسهم في استيعاب المادة المدرّسَة بلغة يفهمها المتعلم دون تعقيدات صرفية ونحوية.طبعا دون أن ننسى قنواتنا

الإعلامية،المرئية والمسموعة والمكتوبة، الدائبة على تصدير لغة متهالكة هجينة تحت يافطة "إعلام الواقع"!!

لا شك أن تضخم الإغراءات وتواردها في عين "العربيّ" أعاد تشكيل وعيه بشكل جديد، بشكل جعله في جاهزية تامة للتخفف من أثقال هويته العربية ومن ثَمَّ لغته بكل سهولة، مادامت لا تستجيب لأحلامه اليومية. ومع توسع هذا الواقع الملوث ثقافيا ولغويا، لابد أن نبلغ ذاك اليوم _ ولعلنا أقرب منه_ الذي ستؤول فيه لغتنا في ظل غياب اهتمام ابنها العربيّ بها،كما عبر عن ذلك اللغوي التونسي « د عبد السلام المسدي» صاحب كتاب "العرب والانتحار اللغوي"، إلى الضمور والأفول،وستتحول إلى لغة مرتهنة في طقوسات رسمية جدا،أو تعبدية جدا، أو إبداعية في حدود ما. وعوض أن نقيم لها أعياد ميلاد سنجد أنفسنا مجبرين في أجل قريب على إقامة مراسيم العزاء.

للرحمة والتحنان ما أحوجك يا عدنان !

كم ثرَّب علي المثربون، وكم لامني اللائمون، وكم عاتبني المعاتبون بدعوى الاستماع ومتابعة خطب ومحاضرات داعية بزغ نجمه في سماء الدعوة في الآونة الأخيرة، ناهلا من علوم شتى، فاجتمع فيه ما تفرق في الآخرين. هذا الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وقلب الموازين، جاعلا عاليها سافلها ومياسرها ميامنها. هذه باختصار التهمة التي لف حبلها المعاتبون حول رقبتي، كأنما تركت قِبلة المسلمين واتخذت تمثال الحرية قبلة أخرى لصلواتي.. ومن هنا أبدأ.

لم أكن منشغلا قط بكل ما قيل وما يقال، ولم أكن يوما أفكر ولو بعُشُرِ رغبة أن أجعل الحبر يسري على الورق في هكذا موضوعات، أولا لأن عادتي أن أجيب أمثال أولئك _ سرا طبعا _ بقول الشاعر:

لو كل كلب عوى ألقمتُهُ حجرا = لأصبح الصخر مثقالاً بدينارِ

طبعا مع حفظ الآدمية لبني البشر، والحيوانية للكلاب، وإلا فلا يجوز من حيث الأدب على الأقل الحديث عن الكلاب في مقام خُصص لبني آدم (أعز الله الجميع). وثانيا لأني أملك من بنات الدهر كل بنت، ولا وقت لدي ولا كاهل أثقلهما بالمزيد من مشاغل تداهمني من هنا أو

هنالك. لكن ما جعلني في الحقيقة أخيرا أستجمع قناعة تامة للرد على أُصَيْحَابِي الكرام، ليس بالتأكيد المرافعة عن الرجل والمنافحة عن قيله وقاله، وليس الهمس في عقولهم بجعل أفكاره في أجنداتهم وتبنيها، كلاًّ وألف كلاًّ، فالرجل أكبر من هذا اللغط كله، ولا يحتاج لجاهل ومحامٍ فاشل _ على الأرجح _ مثلي لينتزع من الناس صكوك إنصاف واعتراف ورضى تجعل هذا الفلسطيني في منأى عن سهام وبنادق أفواههم الملتهبة.

ربما سنتفق مبدئيا أننا نحن العرب والمسلمين نكره بل نمقت أي فطام معرفي نصطدم بجداره أو نُخضع له على حين غرة، بمعنى، أننا لا نحتمل التخلي والمجازفة بما ألفناه ورضعناه من أمهاتنا وآبائنا وأسلافنا ومواضينا الغابرة. بل وإننا _ للأسف _ نقبل الأمور على سذاجتها وخطئها ومنافاتها للمنطق البشري قبولا مترسخا صلدا مُدَّعين أن في الأمر سرا ولغزا لا يعلمه إلا الله، لتصير أفكارنا هاته كالأحافير التي تشق مكانها الأبدي في الصخور، فتصير جزءا متأصلا فيها. ولا أدلَّ على هذا من قصيدة " طلع البدر علينا " المعروفة، التي ظننا ولا نزال نظن أنها قيلت في مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغ به السفر المدينة بعد مغادرته مكة بصحبة الصديق رضي الله عنه. وللأسف هذا ما كرسته كتبنا المدرسية جيلا عن جيل، وأعظم من هذا

وذاك، بلوغ الزلة أن تكون مادة إعلامية أسقطت " مصطفى العقاد " رحمه الله، المخرج الكبير، في إعادة إنتاج نفس الأخطاء في رائعته " الرسالة ". والحقيقة أن القصيدة قيلت فيه صلى الله عليه وسلم لكن أثناء عودته من معركة " تبوك " لما بلغ صلوات الله عليه " ثنيات الوداع " وهو مكان بشمال المدينة !! وقد أشار" ابن القيم " لهذا التنبيه في" زاد المعاد " وغيره، وقس على هذا المثال أكياسنا الملأى بالغث والسمين..

فلا أقل إذن من أن نُكْبِرَ ونرفع قبعات الاحترام والتقدير لكل من تجرأ على حمل مشاعل الفحص والتحقيق المنهجي العلمي تصحيحا لكل ما يحتاج لإعادة النظر في كل موروثنا القديم، ولا نكون إمَّعاتٍ وإسفنجات بريئة تمتص كل شيء، أو كحاطب ليل يلقف بكفين تائهتين وبعينين لا تريان إلا السواد ما ينفع وما لا ينفع. ومن المفروض إذن أو على الأقل من اللائق أخلاقيا وأدبيا أن نشكر الرجل على تحمله من أجل رسالته العلمية والتوعوية وِزْرَ إهانات وعبارات قدحية أربأ بنفسي أن أنثرها بين السطور هذه، وقد قيل فيه كما يعلم الجميع ما لم يقله مالك في الخمر. كعادتنا دوما، فحين نفشل في رفع مستويات عقولنا نتفنن في رفع مستوى الصوت المشفوع بشتى أنواع الشتم والسباب !!

قد يكون الإنسان أكبر جاحد يمشي على قدمين بتعبير الأديب ديستوفسكي، وقد يكون مستكبرا ربما لداعٍ ما، وقد يكون رافضا لكل رأي جديد يزاحم آراءه وقناعاته، فلا بأس إذن مادام الآدمي حرا في اختياراته المعلنة والمبطنة، فالتاريخ رفض "كوبرنيكوس" ورفض "غاليليو" ورفض "ألفرد فيجنر" وغيرهم كثير..كون المجتمعات حينها لم تحبذ الثورة والانقلاب على المألوف والسائد، ولم تتقبل الصدمات العلمية إلا بعد ردح من الزمن، وصدق "آرثر شوبنهاور" الذي خلص إلى أن الأفكار تكون أول انبعاثها مرفوضة، لتصبح بعد حين مقبولة ويمكن التعايش معها، فتستقر في آخر المطاف في أذهان الناس على شكل بديهيات ..وإن من يعتبر شخصا كعدو فحتما سيخطئ في فهم كل ما يقوله كما قال نيتشه، وإن من يطفئ سراج العقل والمنطق والموضوعية والنقد العلمي، ويسمح بإضاءة سراج العاطفة والاستيراد غير المنخول فلا مرية من تصديقه لأي قول شيطاني مفبرك يكفي أن يفتتح ب " قال الله تعالى " بتعبير محمد أركون.

فيا لائمي إذن، خذ من فكر عدنان ما تراه نافعا لك واطرح ما لا تراه يزيد من ثقل حقائبك المعرفية، فكل آراء البشر مأخوذ منها ومردود خلا ما نطق المرسلون به عن كلام وحياني سماوي مقدس، ولا تجعل قولة الإسباني "ميغيل دي غونامونو" كأنها قيلت فيك، وهو

القائل: " إن أعرجَ يفشل في أن يعيش حياته كما ينبغي، يميل مباشرة إلى تسكين مشؤوم كي يعوض فشله بتشويه كل ما حوله ". ويا لائمي، دع الناس وما يشتهون، فهم أدرى بمنافعهم، والله هو الهادي والموفق لكل أمر، ودع عنك رشق الناس باتهامات قد تثبُت وقد تبطُل، فالرصاصات لا تعود للخلف إذا غادرت مواسير البنادق.

يا لائمي، حري بك أن تهتم بشؤونك وتتفرغ لإنقاذ نفسك من المارد الجاهل المتعجرف الذي سكن دواخلنا حتى تنَمْرَدَ وارتقى منا مرتقى صعبا، ولعلك لا تجهل مقولة " قس بن ساعدة " لملك بيزنطة " أفضل العقل معرفة المرء لنفسه "، كما لا إخالك تجهل قولة " جونتان صوفت " القائل: " إذا اجتمع أغبياء العالم على شخص بالرفض، فاعلم أنه عبقري."

المعرفة الإنسانية ملكية مشتركة، ليست حكرا على دين أو على عرق أو على مذهب وطائفة، كالحكمة تماما، أنى وجدها امرُؤٌ فهو الأحق بها. إذن، فما دمنا نصفق لعظمة نسبية" أينشتاين" اليهودي، ونأخذ النحو التوليدي من لغويات "نعوم تشومسكي " الملحد، ونستشهد بحكم بوذا وكونفوشيوس...فكيف نسجن شخصا قال ربي اللهُ ونبيي محمد(ص)داخل صندوق أسود، جريرته الوحيدة وتهمته الثابتة " التفكير "؟ إنك وأيم الله لتستحق الرحمة يا عدنان، ويا عجبا

لصاحب المدينة الفاضلة الذي حُقّ له أن يصدح بيانا وقبل قرون خلت بمسكوكته:" أحق الناس بالرحمة أعلمهم بين جُهال ...

قيمتك في درهمك !

قد نستغرب ونتعجب جميعا، تبعا لما تستدعيه ملاحظاتنا اليومية المألوفة ومعرفتنا المعيارية، من حياة نبتة السّاكورا اليابانية _ أو الكرز الياباني_ التي ينبت بعض أنواعها في الفجر ليموت في فترة الغروب، بل، وتُثبت بعض الأطالس العلمية أن حياتها كلها لا تتجاوز الأسبوع ! ولهذا يُرمز بالسّاكورا إلى الحياة سريعة الزوال، وإلى الجمال الفاني على وجه العجلة. هذا مفهوم،لكن، ما علاقة هذه التقدمة بالمشار إليه في العنوان؟

إن الحديث عن الإنسان قيمةً ومكانةً حديث مكرور ومعروف لدى الجميع، والتشريعات السماوية والأرضية على السواء أجمعت بهذا الصدد على ضرورة تكريم هذا الكائن العاقل بما يليق به، لعله ذات يوم لا ينحدر إلى ما دونه من الكائنات الحية في درجة دنيا، وهو الأمر الحادث حقيقة بعدما سقط شأنه وغدا بضاعة رخيصة تُباع وتُشترى. وما دمنا في معرض الحديث عن البيع والشراء، فالحديث ضمني عن المال وعن سلطته الاعتبارية.

لا يمكن لأي سبب من الأسباب جحود أهمية المال البالغة في تلبية الحاجات وفي تحقيق المنافع والمكاسب، ولاشك أنه _ بنوعيه العام والخاص _ أصبح منذ تداول أول عملة موحدة صينية قبل ثلاثة آلاف سنة تقريبا، عصب الحياة ونسغها الحيوي، وبه صارت شؤوننا الدنيوية أقرب إلى اليُسر وإلى المرونة من ذي قبل، حيث لم تعرف البشرية إلا مقايضة سلعة بأخرى؛ بل، وهناك من عدّه سببا رئيسا من أسباب السعادة والاستقرار الاجتماعي والنفسي... ومع استحضارنا الواعي لهذا الدور الفعال لكل ما يحمل قيمة مادية، ومع إيماننا الكامل بالمال ميسّرا دورة الحياة، بيد أننا نتحفظ على تبويئه مثابة ودرجة أعلى من الإنسان ذاته، واعتباره غاية مَرومة بشتى الوسائل، عوض اختزاله في وسيلة وأداة يقلّبها مستعمله بين يديه، أداة تؤدي وظيفة ما لا أقل ولا أكثر.

لئن كانت نبتة الساكورا اليابانية تفقد قيمتها الجمالية والمادية بعد يوم فقط من ذبولها، أو بعد أسبوع على أبعد تقدير، فالإنسان أصبح فاقدا لقيمته الآدمية منذ نشبت الرأسمالية المتوحشة أظفارها في كل معيشنا اليومي، وبسطت المذاهب المادية نفوذها على الذهنية العمومية _ بتعبير العروي _ وعلى الأفكار، حتى وجدنا أنفسنا وسط هذه السيولة الهائلة من المرجعيات الجديدة، التي أصبحت تنتج

سلوكات مستهجنة تكاد تصنف ضمن النشاز الاجتماعي والشذوذ الفكري، تحت يافطة: أنت وما تملكه من مظاهر مادية! أي، عنوان حياتنا الحديثة أو "السائلة" بتعبير باومان.

قد يكون من "العار" الاجتماعي والديني، إن صح التعبير، اعتبار المال آلهة تُعبد وتُقدّم لأجلها القرابين، وجعله شيئا كامل التقديس تنتهي عند أعتابه المرامي والغايات. ومن المستظرف في هذا المقام التعريج على بعض ما الآثار الأدبية التي وإن كانت بسيطة في تراكيبها، إلا أنها تستبطن من المعاني والقيم ما يصب في موضوعنا، كأنما خُلق الإنسان بضلع مادي منذ بدء الخليقة. ومما أستلطف استحضاره، قول الأول:

وكان بنو عمّي يقولون مرحبا *** فلما رأوني معدَما مات مرحبُ

وقول علقمة الفحل في بائيته المشهورة، منتقدا بعضا من سلوكات نسوية مادية:

فإن تسألوني بالنساء فإنني *** بصيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ

إذا شاب رأسُ المرءِ أو قَلّ مالُه *** فليس له في وُدّهن نصيبُ

وقول محمد بن القاسم الهاشمي في لاميته، في نفس السياق دائما:

إن الغنيّ إذا تكلَّم كاذبا *** قالوا: صدقتَ وما نطقتَ مُحالا
وإذا الفقيرُ أصابَ قالوا: لمْ يُصبْ *** وكذبتَ يا هذا وقلتَ ضَلالا

أما وقد وضح المقال، فلا داعي إذن لاستدعاء مزيد من الآثار والشواهد التي تكاد تُجمع على معنى وحيد مفاده: قَدْرُك المعنوي لا معنى ولا وزن له إزاء فقدانك قدْرَك المادي ووزنك "النقدي"، فالمال، كما قال شكسبير، عندما يتقدم تُتفتح أمامه كل الأبواب.

إن الربط القائم بين أقدار الناس ومراتبهم وبين ما يحوزونه من أموال، لهو ربط غير مباشر بين المال في تجلياته المتعددة، وبين السعادة متمثّلةً في الاستقرار المادي والنفسي وفي الرفاه الاجتماعي؛ إذ يزعم المتخندقون داخل هذا النمط في التفكير أن المال كسبب من أسباب القوة، سبب رئيس من أسباب السعادة. كيف لا وهو القادر على تجاوز الماضي وجبر كسوره، وعلى الإمتاع في الحاضر، وعلى تأمين المستقبل؟ أ ليس المال قادرا على نسف كل أشكال الحرمان المحدقة بالمعدومين؟ ألم يكن الرّافعيُّ في كتابه " المساكين" صادقا حين قال: " من لم يستطع أن يتوقّى ضربة الحياة المدنية بعُدّةٍ من قوةٍ وعتادٍ من المال، طاحت به فدكّتْهُ دكَّ الخسفِ، ووضعته من الناس موضع الحبّة من الرّحى الدّائرة ."؟

قد تكون هذه الأسئلة وأمثالها مقنعة ومنطقية، بل، هي بالذات ما ينبغي طرحه الآن، منذ بشّر مفكرو العالم الغربي بقيم العولمة والحداثة التي لخّصها كانط في "خروج الإنسان من حالة الوصاية التي تسبب فيها بنفسه، والتي تتمثل في عجزه عن استخدام فكره دون توجيه من غيره.."؛ وبورديّة الحضارة المادية الجديدة، التي ألقت بظلالها على كل شيء تقريبا. بيد أن للدراسات الحديثة رأيا آخر غير ما هو مألوف ومأنوس، خصوصا إذا تم اعتماد المناهج التجريبية والاستقرائية التي تكون نتائجها أقرب إلى الحقيقة. فقد توصلت

الدراسة المنشورة في مجلة "دراسات السعادة"، التي أشرف عليها غريغوري بون، المحاضر بقسم علم النفس بجامعة موناش الأسترالية، إلى أن الارتباط مع أفراد المجتمع بعلاقات حقيقية وطيدة، واكتساب الحكمة، وعيش حياة أخلاقية، كانت على رأس عشر متطلبات الحياة الجديرة بالاهتمام، ليأتي المال خامس أقل المتطلبات أهمية؛ كما أكد الباحثون أن النتائج المرصودة هي نفسها بين كل العينات التجريبية المختلفة عرقا وثقافةً ومستوى اجتماعيا، ليثبتوا أخيرا أهمية وقيمة مفهوم الإنسانية مقابل كل المفاهيم المادية التي حجبت مناظيرنا أمام الحياة، لتسقط _ تجريبيا _ بذلك كل المسكوكات الكلاسيكية المُعشّشة في أذهاننا منذ أمد.

فالسعادة، كما قال لافونتين، قناعة، فلا الذهب ولا العظمة يجعلاننا سعداء. ليصبح من التجنّي إذن على مفاهيمنا المتداولة مجتمعيا، عقد زواج "كاتوليكي" بين تعريفنا للإنسان ماهيةً وكينونةً، وبين تعريفنا إياه كقيمة "مادية" محضة، قيم لا تعير أي اهتمام للجانبين القدسيّ والروحي فيه، بالرغم من كونه أشرف من عرفته الخليقة منذ مهدها الأول؛ هو مبتدأ الحضارة البشرية ومنتهاها؛ هو من ندين له بما نشهده من تطور وتقدم؛ هو العقل الذي سبر ذواتنا وعرّفَنا مجاهيلها، ومجاهيل الكون في مستوى آخر.. هو أول شيء وآخر شيء وكل شيء، ولله در الإمام علي بن أبي طالب منشدا:

وتَحْسَب أنكَ جِرْم صغيرٌ *** وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

متى نتخفف إذن من أثقال مَعْيَرَة وجود الإنسان بملكيّته وبمعدوميّته، بفقره وبغناه؟ ومتى سنقنع أنفسنا جديا، بعيدا عن كلام مفرغ من أدنى إرادة حقيقية لتغيير أنماط محاكمتنا للمواقف وللسلوك، بضرورة تقبّل الآخر من حيثية آدميته وإنسانيته فقط، دون الالتفات إلى ما يحيطه من زخارف خارجية ومن هالات برّاقة زائفة تُجانب في غالب الأحيان جوهر الذات الحقيقي، وتجعلنا نخطئ ونتعثر دوما في قراءتها قراءة نافذة صائبة؟ ومتى سنكون قد تخلّينا مُمارسةً

عن "الكوجيتو" الديكارتي، الذي بدأ يفرض ذاته بشكل لافت: أنا صاحب درهم، إذن أنا موجود؟!

الأزماتُ والبِدائِيُّ الذي يَسْكُنُنا !! [1]

كان العربيُّ قديما إذا ما مسّهُ ضُرٌّ من بني جلدته، خاصة من بني العمومة والخؤولة ردد المثل المعروف: " ما أخاف إلا من سَيْل تَلْعَتي "، تَسْرِيَةً عن قلبه المحزون بما ألمَّ به ممن كان يُظَنُّ، لاعتبارات القرابة والدّم والعتْرة، أنهم العُزوة والسّند والسور المنيع، فإذا بهم يتحولون في أول فرصة سانحة إلى مفترسين ومصّاصي دماء؛ السلوك الذي جعل **طرفةَ بن العبد** في غابر الأيام يرفع عقيرته بظلم ذوي القُربى الأشدِّ مضاضة...

لم يكن ثمة داعٍ لهذه المقالة، لولا حدثٌ أغاضني رأساً وعَقِباً،خاصة في ظرف دقيق كهذا، يحتاج من الفرد الركون إلى زاوية ضيقة من عالم واسعٍ مُتراحبٍ، وكأن التاريخ يأبى مجددا إلا إعادة زمن الثّلاثة الذين خُلِّفوا فضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ. وأقصد بالحدث خُلُوَّ المتاجر الصغيرة والكبيرة من أكياس القمح الصلب واللين خُلُوًّا يبعث على الاندهاش والاستغراب، حتى بدأت بجدية أستدعي

(1) - كُتب المقال إبان تفشي فيروس كورونا في العالم، وقد أضفناه إلى المقالات المكتوبة في وقت سابق باقتراح من الدكتور عبد السلام دخان.

تساؤلات وجودية بعدما عانيتُ من العثور على كيس طحين الأمرَّينِ، بل البُرَحَيْنِ والأَقْوَرَين !! ومن هنا البداية ...

مضطرٌّ حقيقةً إلى العودة خلفاً، تحديدا إلى سنة 1557،متأملاً لوحة الجندي والمغامر الألماني **هانز ستادن**، على إحدى صفحات كتابه **آكلو لحوم البشر العراة والشرسون Nus ,féroces et anthropophages /** ، حيث سرد **هانز** قصة نجاته من قبيلة **توبنامبا /Tupinumba** في أحد سواحل البرازيل سنة 1555، مُبرزاً طرائق تعذيب الكائن الآدمي والتهام لحمه في طقوس بشعة تعتبر في أعراف القبيلة طقوسا احتفالية عادية ! الكتاب الذي حصَّلَ ثناء الأنثربولوجي الفرنسي **ليفي شتراوس**، جاعلا إياه من أكثر الشهادات إثارة في القرن السادس عشر عن سكان العالم الجديد إبان الاكتشافات الجغرافية. طبعا لم أُشِر إلى عهد إنسان "النياندرتال" قبل أربعين ألف سنة تقريبا آكل البشر _ حسب نتائج أبحاث عالم الآثار البلجيكي **كريستيان كاسياس**_ كونُ هذا الصنف معدود من أشباه الإنسان، ولم يرتق بعدُ إلى جنس **الإنسان العاقل Homosapiens/**،فما علاقة موضوع أكل البشر إذن بخُلُوِّ السوق من الطحين؟

من المعروف تاريخيا أن بلوغ هذه الدرجة من الاجتراء على الاقتيات من جسد الجنس ذاته لا يكون إلا بمسببات قصوى، تضطر إليه الجماعات البشرية أحيانا حين تعدم القوت، كفترات انتشار المجاعة تحت نير حصار أو حرب، أو بمسببات عقائدية أو أعراف متوارثة تدخل في طقوس تعبدية أحيانا، أو تدخل في أفاعيل السحر والشعوذة والاتصال بالعالم العُلويّ الروحاني لدى بعض القبائل البدائية، كالاعتقاد بأن اللحم المأكول يحمل قدرات الشخص الميت الذي غادر عالم الأحياء؛ ويكون هذا الطقس كذلك نتيجة مرض سلوكي نفسي، كعقاب المنتصر للمهزوم والمبالغة في إيذائه زمن الحروب. لقد أشارت سرديات عربية عدة كذلك شعرية ونثرية مُوثّقةً بعض السلوكات الكانيبالية لدى بعض القبائل العربية ولدى الأمم الأخرى، ونشير هنا إلى كتاب **البخلاء** للجاحظ،وكتاب **تحفة النظارفي غرائب الأمصاروعجائب الأمصار**لابن بطوطة.

مع بداية انتشار فيروس كورونا في المغرب، ومنذ الأيام الأولى فقط، بدأت بعض فئات المجتمع الميسورة المُتَموِّلة التهافت على المواد الغذائية بشكل هستيري غير مبرر وبكميات غير معقولة، حتى أُفرغت المحلات التجارية من احتياطاتها ونفدت مخزوناتها من المُستهلَكِ اليومي الحيويّ... وقد كان ما كان فغدت الأسر ذات الدّخل المتواضع

في حيصَ بيصَ من أمرها، فخاب الباحثون عن كيس طحين ووَلَّوْا إلى ديارهم خائبين وأصبحوا فيها جاثمين ! والحقيقة أن أولئكم المحتاطين لزمن القحط والمجاعة وقلة المُؤَنِ، فاتَهم ديناً وخُلُقًا وعُرفًا، بل عقلاً أننا لسنا في زمن **يوسف** النبي، الموعودِ بسبع سنوات عجاف، يجمعُ الحنطة قبلهن سبعاً أخصاباً ويختزنها بكل أريحية، أما الدول الموبوءة فلا **يوسفَ** يفتيها ويحذّرها من شرّ ما نُكبت به.

واهمٌ حقا من ينكر غريزة البقاء والتمسك بالحياة لدى الكائنات الحية جملةً، وواهمٌ أكثر من ينكر الجانب الغرائزي الحيواني الثابت في الإنسان مهما حاولت الثقافة والمدنية جعلَه كائنا متعاليا في سلم التطور الحياتي، قادرا على التواصل بشكل راقٍ، وقادرا على التعامل مع التكنولوجيا الآلية والرقمية. ولقد أوضح باحثون كُثُرٌ،فيما يرتبط بدوافع السلوك الإنساني، الجانب الفطري فينا قبل الجانب المكتسب، كما أشار إلى ذلك على سبيل المثال الأمريكي **أبراهام ماسلو** في كتابه التحفيز والشخصية، عارضا نظريته الهرمية الشهيرة التي تقتعد الحاجات الفيزيزلوجية وتجعل حاجات تقدير الذات على القمة، وكذلك الأمريكي **جوزيف موراي** في كتابه الدافعية والانفعال، **ومحمد علي مومني** في كتابه دوافع السلوك الإنساني وآخرون مما لا يسعف المقام للتذكير بهم وبأبحاثهم التي تشير إجمالا إلى غرائزية

الإنسان ونزوعه إلى تأمين ما يبقيه على قيد الحياة . طبعا، لا ينكر منكِر أن الحياة تستحق أن تُعاش وأن يُبذل من أجلها كلُّ غالٍ ونفيس، وقد صدق **محمود درويش** قائلا: " نحبُّ الحياة غداً، عندما يصل الغدُ سوف نحبُّ الحياة كما هي عادية ماكرة، رماديةً أو ملوَّنة. لكن، ومع رفع هذه الفكرة المُثبتة في العقل الجمعي إلى درجة المُسلَّمات واليقينيات، ومع اعتبارها من السّنن الكونية الناشئة مع ظهور أول خلية حية (Protozoa)، إلا أن استثناءات عدة تُطوّق الجنس البشري العاقل بحكم ما بلغته مُدركاته ومعارفه في مجتمعات خرجت من أغلال البدائية والطبيعة المتوحشة والحياة الغريزية الصِّرفة والحيوانية العذراء، واليقينُ أن حياته العادية قد تَرَوَّضَتْ وتكيَّفت، بل، تماهَت بشكل تامّ مع مقتضيات مجتمع الثقافة والمدنية والتّقنية والتواصل الرقمي، وقبل هذا وذاك، مع ما يقتضيه الحسّ الإنساني المشترك والأخلاق الكونية، المشروع الذي أعربت عنه فلسفة **إيمانويل كانط** بشكل مباشر في كتابه " مشروع للسلام الدائم"، وآخرون قبله وبعده، ممن اعتبروا الإنسان غايةً لا وسيلةً.

إن الانطواء على الذات، والاهتمام المفرط بها بمعزل عن الذات المُفارِقة الأخرى، يُذكي ويُضخّم بشكل أو بآخر النوازع النرجسية والميولات الأنانية وهواجس العظمة والشعور بالاستحقاق، بل،

ويصنع أحيانا ما يمكن تسميته بالذات " العُلوية " إزاء الذات " الدُّونية " التي يمتلكها الآخرون العاديون. وبذلك تكون هذه الفئة " العُلوية " _ في عُرفها المقدس_ أحقَّ الكائنات الحية بالعيش والأجدر بالتنعم بالحياة، ظنا منها أن الكون بكل مكوناته إنما خُلق وسُخِّر لهم، فيكون إذن سلوك حيازة كل ما يجعلهم على قيد الحياة، سواء بالمال أو بالسلطان أو بأية وسيلة أخرى، مبررا ومشروعا، بل، حتى القوانين الوضعية _ للأسف _ تشرعن أحقّيّة القوي السيطرة على مُقدّرات الضعيف، ولا عجب ولا غرابة في ذلك، إذ صار هذا المنطق النِّتشوي النّازي ساري المفعول في كل دساتير العالم وإن تَخَفَّى وتستَّر خلف عبارات ظاهرُها احتفاء بحقوق الإنسان وانتصار للضعفاء وتحقيق للعدالة الاجتماعية، وباطنها تقوية نفوذ القوي وبسط سيطرته المادية والمعنوية، والواقع المعيش أصدق صورةً وأبلغ مقالاً !! فما جدوى الدّين والثقافة والمدنيّة إذا كان بالإمكان أن ينهش الإنسان لحم أخيه هكذا بكل أريحية، ويسطو على خبزه اليومي ليحتكر مقومات الحياة لنفسه، دون أن يَطرف له جفن؟ ما جدوى كل هذه المؤسسات إذن إذا كانت الحصيلة إنسانا يتحول، أمام اختبار حقيقي، إلى أحد كانباليّي قبيلة **توبنامبا**، أو إلى إنسان **النياندرتال Neanderthal**

man/؟ أليس هذا تجسيدا ماديا للمقولة الهوبزية: "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"؟

إن مشاريع الأنسنة هي في حقيقة الأمر مجرد مشاريع وهمية، وأفكار مجردة في مُتخَيَّل **أبراهام لينكولن** و**غاندي** و**مانديلا** و**غيفارا** وأمثال أولئكم الذين أُجهضت أحلامهم بُعَيْدَ وفاتهم؛ هي في الحقيقة أنسنة شكلانية أفْضت إلى واقع مرير حمل يافطة "موت الإنسان"، ليس الفلسفي فقط كما تنبّه إلى ذلك **هايدغر** و**فوكو**، إنما موت الإنسان البيولوجي، تحت سطوة كائن يشبهه خَلْقًا،ادّعى ولازال يدّعي مُنشداً في شعاراته اليومية معزوفة " الإنسان أولا والإنسان آخرا " أمام الوحشية الطافحة في كل مكان والنزعات اللاإنسانية المُعْرَبِ عنها برًّا وبحرا وجوًّا، كل ذلك بالموازاة مع تكرار واجترارٍ سيكولائي **(Scolastique)** لمفاهيم ورديّة رنّانة تُخَلِّفُ في النفس أثرا طيبا أثناء سماعها (الرفاه الاجتماعي، مركزية الإنسان، توزيع الثروة ...). إن الإنسان في الواقع تُغْمَزُ قناةُ بشريته وإنسانيته في الشدة والضِّيق والمحنة، لا في الرخاء والدَّعةِ والحياة المبسوطة.

كيسُ طحين إذن جعل تاريخنا الإنساني على المحكّ، وأكد بما لا يدع مجالا للشك أننا رسبنا وأخفقنا ببشاعة أمام مفاهيم الإيثار والبذل والعطاء والتضامن والتآزر ... فلو كنا نتدين بدين الله، فهو

تعالى القائل: { **ويوثرون على أنفسم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون** } الحشر 9؛ وإن كنا نقدس الحديث الشريف، فالنبي (ص) هو القائل: " **إن الأشعريّين إذا أَرْمَلُوا _ أي نَفد زادُهم_ في الغزو، أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّوِيَّةِ،فهم منّي، و أنا منهم** "؛ أما إذا اصخنا السمع لترنُّم الشعراء، فقد قال **أبو الحسن الجرجاني**:

وتَرْكي مواســـاةَ الأخِلاَّءِ بـالّـذي // تَنـالُ يَـدِي ظُلْمٌ لهم وعُقوقُ

وإني لأسـتحْيي من الله أن أُرى // مَجالَ اتسـاعٍ والصـديقُ مُضـيقُ

وأضاف **حمّاد عَجْرَد** مُنشداً:

إن الكريمَ لَيُخْفي عنكَ عُسْـرَتَـهُ // حتى يُخـالَ غنيًّـا وهْوَ مجْهودُ

وللبخيـلِ على أموالِـهِ عِلَـلٌ // زُرْقُ العُيُونِ عليهـا أَوْجُـهٌ سُــودُ

هذه قِلّة من كثرة وغيضٌ من فيض، وإلا فالرصيد الديني والأدبي طافح بالحثّ على تجاوز نرجسية الذات المتعالية وأنانيتها السوداء، داعيا إلى استحضار الأخلاق أمام المُلِمَّات والمصائب، ولعل أخلاق الأمة على الخصوص، كما قال **غوستاف لوبون**، لا المصادفة ولا الأحوال الخارجية ولا النُّظُم السياسية، هي التي تمثل الدورَ الأساسَ في

تاريخها؛ وفي كتابه " التنبيه إلى سبيل السعادة " شدَّدَ **أبو نصر الفارابي** على التوسُّط والاعتدال في الأفعال وفي التَّصرُّفات باعتبارها سلوكات تضيف جمالا إلى الخُلُق البشري.

سرديات مجاورة

نجيب محفوظ والنبش في صناديق قديمة !!

" اذكروا محاسن موتاكم" و"اذكروا موتاكم بخير"، عبارتان تعدان حسب تقديري البسيط من أعظم ما يُقدم للميت من احترام وتقدير يليقان بشخص غادر ظهر الأرض إلى بطنه. وهما_ أي العبارتان_ خير أثر يؤكد على أن الدين الإسلامي الحنيف لم تفته إقامة جسر نفسي معنوي بين الحي والميت بالرغم من كل الصلات المحسوسة المنتهية والمنتفية؛ فالاجتماع وارد بين البشر سواء في الحياة أو في الممات، ولعل الشاعر كان صادقا حين قال:

كُنا على ظهرها والدهرُ يجمعنا ++ والشّملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ

فمزّقَ الموتُ بالتفريقِ أُلفَتَنَا ++ وصار يجمعُنا في بطنها الكَفَن

لعل جميع الأوساط الثقافية في مصر وفي العالم العربي تداولت مؤخرا خبر اتهام الروائي "نجيب محفوظ" بتهمة "خدش الحياء"، وذلك من خلال بعض رواياته الاجتماعية شديدة الواقعية، بل و"الفاضحة" كما ادعى المتهِمون، كرواية الحرافيش وثرثرة فوق النيل والثلاثية ...؛ لكن الأمر لم يقف هاهنا، بل تجاوز " النجيب " كل حدود اللياقة، متسلقا أسوار الأديان الشاهقة والمنيعة حين كتب " أولاد حارتنا "_

الممنوعة من الطبع في مصر آنذاك _ بدعوى ازدراء الأديان وتشخيص الذات الإلهية تحت اسم " الجبلاوي " بطل الرواية.

باختصار شديد، أُعيد النفخ في رماد بارد، وأعيد فتح ملفات قديمة، لا لشيء، سوى لإثارة عجاجة ضد الفكر وضد القلم وضد العقل في مستوى أعلى؛ وهذا ما يخشاه طبعا العقل الإقصائي المشحون بمنطق " لا أريكم إلا ما أرى " الذي تفتخر بتبني أفكاره ومقولاته مجموعة من الجماعات والطوائف المحسوبة بالضرورة على التيار الإسلامي السلفي المتشدد؛ العقل الإسلاموي الذي ظل "محمد أركون" و"عابد الجابري" و"مالك بن نبي" وآخرون عاكفين مدى عقود على دراسة أنماط وآليات إنتاجه لفكره المستقل، ومن تم نقده وانتقاده في مرحلة متقدمة؛ العقل الساعي وبلا شك إلى تكفير الأشخاص واتهامهم تحت أدنى تحرك خارج القوالب الموروثة والموضوعة "سلفا"، حتى وإن كان الأمر يحتمل تآويل عدة، وينفتح على سياقات تفسيرية مغايرة أخرى ممكنة .

إن اختيار "نجيب محفوظ" دونا عن كل أدباء مصر الذين كتبوا تماما كما كتب محفوظ، أولا بحظر بعض أعماله من النشر، ثانيا تعرضه لمحاولة اغتيال في أكتوبر عام 1994 على يد شاب متشدد لم يقرأ له على الإطلاق ولكنه كان مقتنعا أنه أصبح كافرا وخارجا عن الملة

بسبب رواية "أولاد حارتنا"، لأمران يثيران الدهشة والاستغراب حقا، بل وكيف تُبعث الروح في تهمة قديمة ضد نفس الأديب الذي أصبح رميما تحت الأرض؟! مع العلم أن هذا "المتهم" هو نفسه الذي وجه كاميرات العالم وأنظار الصحف العالمية إلى مصر غداة إعلان فوزه بجائزة نوبل للآداب سنة 1988،رافعا رأس مصر والأدب العربي في الشرق والغرب. فهل يمكن أن نتحدث هنا حقا عن أعداء للنجاح؟ قد لا نستغرب هذا من أوطاننا العربية التي ما فتئت تلتف حول الناجح حتى يفشل بتعبير مواطنه "النوبلي" في الكيمياء " أحمد زويل" . ومما يعضد قولنا هذا ب"الانتقاء" المقصود، ادعاء نفس المدعين أن جائزة نوبل مجرد إكرامية من الأكاديمية السويدية عرفانا منها لمواقفه الإيجابية في عملية إحلال السلام بين إسرائيل وفلسطين، وهو الموقف السياسي الذي مُنح عليه " أنور السادات" جائزة نوبل للسلام سنة 1978؛ وإلا_ في تبرير ثان_ فالجائزة الممنوحة ل"النجيب" فعن جراءته على الأديان وازدرائها بروايته الملغومة "أبناء حارتنا"!!فالجائزة في جميع الأحوال لم تُمنح البتة عن رصيد "محفوظ" الروائي والقصصي حسب المدّعين، إنما عن مباركته السياسية للسلام مع الكيان الإسرائيلي، وبالتالي الاعتراف به ضمنيا كدولة شرعية بين دول المنطقة. فالسهام

حسب ظني موجهة نحو "محفوظ" لأنه بالذات "محفوظ" وليس لشيء آخر !!

كائنة ما كانت الدوافع إذن وراء العودة إلى فتح الصناديق القديمة، واستنطاق الملفات المؤرشفة، التاريخ الإسلامي على الأقل في جانبه المتواتر غير المختلف عليه، لم يَسْعَ إلى تكميم أفواه الأدباء وكبت أقلامهم وتعريض حيواتهم للإفناء، بل على العكس من ذلك، حتى لو عدنا إلى عهد الرسول (ص) فإننا مَلْزُوزُون لاستحضار اهتمامه بالشعراء وإعجابه بشعر حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد بن ربيعة وعبد الله بن رواحة، بل وبشعر أمية بن أبي الصلت رغم ثبوت كفره، فلماذا لم يتعرض أمية هذا للاغتيال وللمحاكمة؟؟. فإذا كان هذا حال النبي (ص) مع أرباب الأدب، فالأحرى أن نظل متأسين بخير البشر في كل زمان ومكان، لا أن نقصف كل من يحمل قلما بتهم شتى حول نص أدبي يحتمل مساحات واسعة من المجازات وآفاق لغوية منداحة. وهذا بالفعل ما أكده " محفوظ" في أكثر من لقاء، نافيا أن "أولاد حارتنا" كان الغرض من تأليفها استفزاز أصحاب الأديان السماوية والاستهزاء بتاريخهم وبموروثهم وبمقدساتهم. فعلى الأقل كان على الأزهريين سابقا، وعلى المدعين حاليا، أن يحكموا على المرء بما يظهره لنا بالقول وبالفعل، تاركين السرائر لحكم الله وحده، دون

دمغ أول تأويل يطفو على السطح واعتماده تأويلا مطلقا ونهائيا، تُبنى على أساسه تهم وأحكام قضائية جائرة.

إن الأدب بتعبير "ماريو باركاس يوسا" أفضل ما تم اختراعه للوقاية من التعاسة، ولعل طريقه أكثر الطرق اختصارا إلى جعل الإنسان يحس بإنسانيته المفقودة، وجعله يعثر على سبيل للعودة إلى فطرته الأولى، فطرة النقاء والصفاء والبراءة، بعيدا عن الوحشية والإقصائية وإلغاء الآخر ودفنه تحت التراب. والأديب كنز قومي وجب أن تفخر به كل أمة وتسعى للحفاظ عليه كما تحفظ التحف، كيف لا وقد قال " وينستون تشرتشل": " إن بريطانيا العظمى مستعدة للتنازل عن جميع مستعمراتها في العالم، لكنها لا تستطيع التنازل بأي حال من الأحوال عن سطر واحد كتبه شكسبير !!"، وبالمثل، ذات مرة اقترح بعض مستشاري الزعيم الفرنسي الجنرال "شارل ديغول" اعتقال الفيلسوف والمفكر الوجودي "جان بول سارتر"؛ كونه كما يقول مستشارو الرئيس: «يحرّض الطلاب وطبقات العمال على التظاهرات، بالإشارة إلى (انتفاضة الطلاب في فرنسا والمتمثلة في تظاهرات 1968م)، وهذا من شأنه إحداث قلاقل»، حد زعم المستشارين بالوشاية بسارتر؛ لكن "ديغول" فاجأ الجمع بقولته الشهيرة: " إنكم بصنيع كهذا تريدونني أن أعتقل ضمير فرنسا بأكملها ."!!

فيا إخواني في مصر وفي العالم العربي، دعوا أرباب الأقلام أمواتا وأحياء، فلهم رب يحاسبهم على ما تضمره جوانحهم ومحابرهم وأوراقهم، فإني أخشى أن يخرج "محفوظ" من قبره مرددا بيت "المعري:"

وما ضرَّني غيرُ الذينَ عرفتُهُم ++ جزَى اللهُ خيراً كُلَّ من لستُ أَعرفُ

بائعة الكلمات... في انتظار ما لا يأتي !

" لتكتب، لا يكفي أن يهديكَ أحد دفترا

وأقلاماً، بل لا بد أن يؤذيك إلى حدّ الكتابة "

أحلام مستغانمي _ عابر سرير

عتبة

كلما ارتبط لدي اسم كاتب بدرّة الشرق "سوريا الشام " وقلبها النابض "دمشق"، إلا وتهيّبته أشد ما تكون الهيبة؛ كيف لا ورحم هذه البلاد لم تنجب للدنيا إلا من خُلّدت أسماؤهم على مر العصور والدهور؛ ولست أغالي حُكما إذا قلت: لو أتى كلُّ مِصرٍ من الأمصار بأفذاذه وجهابذته وفوارسه وأتت دمشق بالكواكبيِّ فرداً لكفاها ذلك مؤونة المفاضلة والمنافسة والمفاخرة... وحقا، إن البلاد تلك لم تنجب ذوي إعاقات قطّ، لا في الفكر ولا في الأدب ولا في الثقافة الإنسية جملة، لكنها أخفقت _ شأنها شأن أخواتها من البلاد العربية_ في إنجاب أسوياءَ كُمَّلَ الخِلقة في السياسة ! ولعل الدهر ينتصر يوما لقلم المفكر والأديب إزاء معول السياسي وكلامه الزائف.

مدخل بسيط:

هي أعواد ثقاب ترتجف بين أصابع فتاة شبه متجمدة في إحدى الشوارع القاتلة بالصقيع؛ تابعت الصغيرة إشعالها تتْرى حتى انطفأت ذخيرتها كاملة، دون أن تخفف عنها قسوة البرد ولا قرقرة معدتها الفارغة، لكن الموت عاجَلها وأراحها من الآلام بضربة واحدة... هكذا اختصر الأديب الدانماركي هانس أندرسن مأساة بائعة الكبريت في منتصف القرن التاسع عشر، ولست أدري في الحقيقة ما الذي لَزَّني على تذكرها مباشرة بعد إنهائي قراءة رواية " بائعة الكلمات " للكاتبة الصحفية السورية ريمة راعي؛ هل كُلُّنا بائعة الكبريت تلك على أرصفة شوارع أوطاننا الشائخة؟ هل استهلكنا كل أعواد الثقاب خاصتنا قبل تبديد ظلمة الحياة؟ هل الموت سبيلنا الوحيد إلى الخلاص؟ أوَ لم يزعم "سوفوكليس" في رائعة "أنتيغون" أن الموت سعادة وخير؟ هل نساؤكِ يا دمشق طوالقُ وسفنك غوارقُ وحاراتك محارقُ؟ تساؤلات لم تُطرح ههنا جزافا ولا اعتباطا، إذ أراها مطروحة في مخيال الكاتبة حتى ضاق بها وعيها وضميرها الداخلي، فاستحالت _ بعد تكاثفها _ رواية نُسجت خيوطها بإحكام، تعترض القارئَ فيها أحداثٌ متشابكة حدّ الالتباس أحيانا، لكنه تشابك كتشابك الخطوط العربية في جدارات قصر

الحمراء، وتناظر كتناظر الخطوط الملونة في سجّاد مغربي فاتن... وما الجمال في آخر المطاف إلا جُماع تعرجات وانحناءات والتواءات مُعادَةِ التشكيل والترتيب بعبقرية.

تضاريس العنوان والغلاف:

درج العنوان على ما ألفته العين والأذن في مجال التأليف الأدبي عموما، فهو تركيب إضافي مكون من كلمتين، أولاهما مضاف وثانيهما مضاف إليه، والتركيب جملةً خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه / تلك. أما العنوان رأسا فشقه الأول " بائعة " جعله مألوفا ومعتادا، على غرار "بائعة الخبز" لكازافيه دي مونتبان، و" بائعة الورد" لعبد الحميد طرزي، و"بائعة الأعشاب" لحنان رحيمي، و" بائعة الكتب" لسينثيا سوانسن، و" بائعة الجبن " لفاطمة الزهراء الكتاوي وغيرها من الأعمال الأدبية المحتفية بالأنثى " البائعة " المنخرطة في عمق تصاريف الحياة اليومية ومقاديرها. أما بيع الكلمات _ أو الكلام عموما_ فالعهد به قديم قدم البشرية ذاتها، ولعله بدأ مع سيادة السيد واستعباد العبد، إذ طفق هذا الأخير باحثا على كلام يبيض به وجه سيده، انتقالا إلى زمن الشعر وصناعة مدائح الملوك والوزراء وكبار الدولة، تزلُّفا إليهم مقابل أعطيات نقدية أو عينية، أما مضمون الكلام فأغلبه

مغالاة ومبالغات هدفه التكسّب لا غير؛ وحالما يغيب العطاء يُقصف الممدوح مباشرة بالهجاء، والأمر سارٍ على كتّاب الدواوين وعلى الورّاقين وعلى كل من احترف فنون القول وتدبيج المعاني؛ أما الشأن اليوم، مع طغيان وسائل التواصل الحديثة، فصار كل فرد قادرا على عرض بضاعته الكلامية بكل يُسر، وقد أُوكِلَ أمر البيع للبرامج الإلكترونية وللمواقع المتخصصة في تسويق الكلام وبيعه، بغض البصر عن مضمونه وعن فائدته.

إن العين متى تبصر غلاف الرواية _ في الطبعتين كلتيهما _ تجد صورة امرأة عَيْطَبولٍ (طويلة العنق، والعرب تعدّ هذا الوصف مظهرا من مظاهر جمال المرأة)، كاشفة عن محياها الحزين حدّ الكآبة، وكأن الكاتبة تنضمّ لركب أولئكم المُدَّعين إمكانية الجمع بين الحزن والجمال وصهرهما في بوثقة واحدة؛ ولعل الطائفة تلك لم تجانب الصواب والدهر شاهد على ذلك؛ فهذه سوناتا " ضوء القمر"، التي " قدم من خلالها بيتهوفن عذوبة الحزن الجميل وغيّر من خلالها تاريخ الموسيقى" كما كتب الناقد لودفيج ريلشتاب عام 1836؛ ودونك لوحة "الصرخة" لإدفارد مونش (1893)، ولوحة "التراجيديا" لبيكاسو (1903)، ولوحة "إلى أين نحن ذاهبون؟" لبول غوغان (1897) ...وغيرها التي استطاعت تشكيل الحزن الوجودي وصياغته في صور جمالية مُعجبة. أما

شيطان الشعر فقد واطأ كذلك الموسيقيَّ والتشكيليَّ على نفس الادّعاء، وهنا يحضرني قول نزار:

إني أحبّكِ عندما تبكينا // وأحب وجهكِ غائماً وحزينَا

الحزن يَصْهَرُنا معاً ويُذيبنا // من حيث لا أدري ولا تدرينا

تلك الدموعُ الهامياتُ أحبها // وأحبُّ خلفَ سُقوطها تِشْرينا

بعضُ النساءِ وجوهُهُنَّ جميلةٌ // وتصيرُ أجملَ عندما يَبكينا

وإن تاريخ الشعر العربي لطافح بقصائد حِسانٍ استطاعت _ بتفاوت_ مزج ذينك المُركَّبين العجيبين، وجنس الرواية كذلك ليس بِدعًا في هذا المضمار وهو ذو القدرة الفائقة على التوليف والتركيب، تماما كما أتحفنا في ستينات القرن الماضي ياسوناري كاواباتا في رائعته "حزن وجمال"،و سماح حافظ في رواية " الحزن يرحل سعيداً"، وغيرها مما يضيق المقام بالإشارة إليه. عموما، تبقى الرابطة والوشائج التي تصل الحزن بالجمال متينة إلى الحدّ الذي جعل عبد الوهاب المسيري يقول: " من يريد أن يجرّب الحزن فعليه أن يُغذّي ناظريه من مظاهر الجمال !".

الروا ية باحثةً عن الإنسان !

على مدى 145 صفحة، في عملها الروائي " بائعة الكلمات"، الصادر في طبعتين، الأولى عن المكتبة العربية للنشر والتوزيع والثانية عن دار روافد للنشر والتوزيع سنة 2018 بالقاهرة، سعت الروائية ريمة راعي في نقلنا منذ الأسطر الأولى إلى عالمها الخاص، عبر الدَّلْف إلى الكوامن الإنسانية ودهاليزها المُعتمة، مسلّطة أضواءها الكاشفة على أغوار الذات وأعماقها غير المُتَبَدِّيَة للعيان؛ لبثَتْ تحفر بلغتها الرائقة في واقع الإنسان الشامي البسيط الذي يأكل الخبز ويمشي في الأسواق، غير مستعدة للهروب إلى مرابع الخيال، مقتلعةً نفسها _ بتعبير ميلان كونديرا _ من حياة لم تكن لتمنحنا أي إحساس بالرضى،والواقع ذاته بات أغرب من الخيال !! إن الروايات لا تكتب في الحقيقة لخلق شخصيات وحوارات وأحداث لمجرد إمتاع القارئ بماجرياتها وانتقالاتها الدرامية؛ إنما لاستفزاز وعي القارئ وفتح بصيرته على آفاق محجوبة عنه، عن جهلٍ أو تحت تغييب الحقائق من لدن الأنظمة الحاكمة، ولنا في " كوخ العم توم" لهارييت ستاو، و" جذور " لأليكس هيلي، وروايتي "مزرعة الحيوان " و" 1984" لجورج أورويل و"الأم" لمكسيم غوركي ...و غيرها مثال من أعمال أدبية غيرت أنظمة تفكير

أحادية وزعزعت قناعات فئات عريضة، بل، أطلعتْ الأجيال المتلاحقة بعد صدورها على حقائق تاريخية لم تكن متاحة _ فنيا على الأقل _ في بطون كتب التاريخ المؤدلجة والمتحيزة في غالب الأحيان. وفي هذا السياق من البحث عن الذات الإنسانية وكشف تنائفها وصحاريها، تأتي "بائعة الكلمات" في مرحلة حاسمة من تاريخ الشرق الأوسط الرازح تحت مخلفات وصنائع ما سُمّي بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، متسائلة، أي الرواية، عن موقع الإنسان والإنسانية،تارة بين الناس أنفسهم، فيما تلتفع به معاملاتهم وسلوكاتهم من كراهية وظلم وإهانة، وكأن "الإنسان قد أَشْكَلَ عليه الإنسان" كما رأى أبو حيان التوحيدي؛ تارة أخرى في تعاليم وعقائد من يصدّرون الوحشية والجاهلية والموت الأحمر إلى العالم، مدّعين أن الدّين " السَّمحَ " مؤسَّسٌ على محاكمة الناس ومحاسبتهم، وأن " التكفير " وفصل الرؤوس عن أجسادها أمر سماوي يعدّ من صميم الرساليّة والإصلاح والتنوير !! وقد تكون عبارة " لعلنا لم نعد بشراً منذ سنين طويلة "(ص 98) إيماءة إلى هذه الحسرة وإن جاءت في سياق مخالف من الحدث الروائي.

أفروديت... الجمال في التفاصيل !

لم تنحُ الروائية في عرض فصول روايتها منحى السرد الكلاسيكي، ولم تلتجئ إلى خلق شخوص متعددة ولا إلى تشعيب الأحداث في أزمنتها وأمكنتها؛ فالرواية جملةً دارت رحاها على عشرة شخوص كحد أقصى، بين أدوار رئيسة وأخرى ثانوية، والرواية الحديثة عموما تميل إلى إبراز الكوامن النفسية والوجدانية لشخصياتها أكثر من ميلها إلى تضخيم الحدث وتوليد جيش من الشخوص[1]. لم تكن طبعا أمّ أفروديت في مدخل الرواية كأمّ غسان كنفاني، أو كأمّ مكسيم غوركي في رائعتيهما؛ فهما كانتا أمّين بحجم وطن، بل استطاعتا تغيير ملامح تاريخ فلسطين وروسيا بحيالهما؛ في حين أن الأمّ الفلاحة البسيطة لا يهمها سوى تجاوز خيبتها "الإنجابية " المتمثلة في ازدياد فتاة شبه سمراء لا تحمل مقومات الجمال المطلوبة، فسارعت لتخفيف وطأة الحسرة بمنح ابنتها اسم " أفروديت "، تبرّكاً بأفروديت، زوجة رئيس مخفر الشرطة الفرنسي في القرية، الجميلة حسب رواية الجدّة. لا شك أن الأم كانت

(1) - يمكن التوسع في الموضوع من كتاب نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية، لنبيلة إبراهيم سالم، النادي الأدبي الرياض، 1980.

تجهل مقام اسم ابنتها في تاريخ الأساطير والآلهة اليونانية[1]؛ الاسم الذي خلق _ عكس المأمول _ عقدة نقصٍ لدى البطلة طوال حياتها، بدءا من محيطها القريب إلى ما بعده من فضاءات متحركة، ورغم أن العرب قديما ادّعوا نصيبا لكل امرئ من اسمه فإن البطلة أفروديت قد ضاقت ذرعا باسمها ناسفة قول العرب، لتذكرنا بقصة الطفل جُعْلٍ (الخنفساء) الذي شكا أباه إلى خليفة المسلمين عُمرَ بن الخطاب قُبح اسمه. لكن أفروديت على مدى تضاعيف الرواية آمنت بالجمال الداخلي وبالحجم الكبير الممنوح للبشر من السعادة الكامنة بين حناياهم، يكفيهم التنقيب عن تفاصيلها فقط، وكأنها تعيد مقولة تشيخوف في قصة العنبر 6: " إن سكينة الإنسان ورضاه ليست خارجه بل في داخله ".

أفروديت... بائعة الكلمات !

تتأطر أحداث الرواية ابتداء من الفصل الثالث فصاعدا ضمن حدود الذاكرة واكتشاف الذات والوجع، والمقصود أن البطلة في المتن الروائي التصاعدي ركزت أساسا على بعض اللحظات التي جمعتها

(1) - أفروديت في الأسطورة اليونانية آلهة للحب وللجمال وللشهوة وللإنجاب، وقد عُني بها الأدب العربي والغربي على السواء.

ببحر ابنها المتوحد والمغدور برصاص طائش، وانتقلت فيما بعد إلى مرحلة اكتشاف معنى آخر للحياة عبر انصهارها الكامل في قراءة ما تجود به مكتبة الأستاذ سعْدٍ، هذا الأخير الذي شكل ظهوره حدثا فارقا في حياتها، فعبره استطاعت البطلة التماهي مع عوالم أخرى لم تكن حسبانها، إذ أنها بشيء من الذكاء الفطري والتمرس على أساليب الأدباء والمفكرين، تمكنت من خلق كلماتها وتعابيرها الخاصة، ما أهّلها إلى خوض تجربة إنتاج المعاني وبيع الكلمات لصويحباتها حسب نوع الطلب، متأثرةً بقصة " الكلمتان " للروائية التشيلية إيزابيل الليندي، حيث البطلة بليسا تحترف هي الأخرى بيع الكلمات حسب المطلوب. هكذا استمتعت أفروديت بالقراءة وبالكتابة مدة ترددها وأخيها الصغير على بيت سعد، الأمر الذي خلق أُلفة خاصة بينهما، جعلت أفروديت تتحسس في عمقها الوجداني وقْعَ وسحر كلمتي بيلسا: أنا أحبك !... ليأتي الوجع مُسَوِّداً بياض الرواية، لتضيف البطلة مأساة فقْد ابنها الوحيد إلى مأساة ابتلاء بلاد الشام بطاعون "داعش"، الذين أقاموا مجازر جماعية في حق أبرياء عُزّل، ظانّين أنهم يطهّرون الأرض من الكفر ومن الشّرك ومن الصّنمية... مجازر أودت إحداها بحياة أمّ البطلة بوحشية، خصوصا أثناء تعريجها على وصف المقابر الجماعية التي احتضنت عشرات الضحايا؛ مشهد أعاد للأذهان مجازر النظام

النازي في حق المدنيين الأوكرانيين والبولنديين، والمجزرة الإسرائيلية في مخيم صابرا وشاتيلا في حق اللاجئين الفلسطينيين، ومجزرة حكومة كوريا الجنوبية في حق الشيوعيين والمتعاطفين معهم فيما عُرف بعد ذلك بمجزرة "رابطة بودو"... وغيرها كثير في تاريخ البشرية قديما وحديثا . استمرت حياة أفروديت الروائية، متجاوزة ماضيها الأسود، بل متناسية إياه، لأننا بالأحرى نتناسى جراحاتنا لنفسح الطريق أمام أيامنا القادمة لتمرّ بلا تماطل أو تأخر، وقد صدق ميخائيل نعيمة قائلا: " حبذا النسيان لو أن ما ننساه ينسانا؛ ما من نسيان على الإطلاق، بل هناك ذهول طارئ لا غير ! "؛ هكذا تجاوزت مآسيها وتحمّلت أقدارها الصعبة واستطاعت الحصول على وظيفة في إحدى دور النشر كمدققة لغوية وكاتبة مقالات خارج وقت عملها، لتغدو بائعة كلمات بشكل رسمي،مستأنسة بعالمها الصغير بغرفتها الصغيرة المستأجرة. سارعت الصدفة بعد ردح من الزمن إلى عقد لقاء جديد بين أفروديت وسعد، لينقدح زناد ذكريات كانت مطمورة تحت الرماد لتلتهب من جديد عبر لقاءات منتظمة متكررة، لتنتهي الرواية فاتحة في فصلها الأخير أفقا لانتظارية مبررة،مادام يوم الاثنين لم يبرح مكانه منذ زمن كما في "ماكوندو" غارسيا مركيز؛ وهي نفس فكرة مالك بن نبي " لازال العالم العربي والإسلامي في عصر ما بعد الموحّدين ! ".

بائعة الكلمات... عود على بدء.

هذا تطواف يسير بين دروب الرواية وأزقتها الملأى بالتقاطعات وبالمدارات، هي حقنة يحتقنها القارئ فيشعر في نفسه أنه قرأ في الحقيقة رسائل غير مشفّرة، واضحة المعنى خالية من الترميز . إن الرواية صراحة تضعنا أمام ذواتنا منزوعةَ الاعتداد بالنفس، متخفّفة من تكبّرو تَعالٍ وعنجهية ألقت بِجِرانِها على الرَّبع العربي الممزق بالطائفية وبالأيديولوجية وبالنعرات القبَلية الممتدة بجذورها إلى زمن البسوس أو داحس والغبراء؛ زمنٌ عربيٌ " حَيِّ الشَّهيقِ ميّتِ الأوصالِ" كما قال ذو الرِّمَّة، أو كما قال أبوبكر بن عمّار قبيل أفول شمس الأندلس:

ممّا يُزَهِّدُني في أرضِ أندلُسٍ // أسـماءُ مُعتضِـدٍ فيها ومُعتمِدِ ألقابُ
مملكةٍ في غير موضِـعِها // كالهِرِّ يحكي انتفاخاً صَـوْلَـةَ الأسَـدِ

بيعُ كلامٍ _ ومن هنا رمزية بائعة الكلمات_ وانتفاخٌ _ كظواهر صوتية بتعبير القصيمي_ على المنابر الدولية بالذي سيكون غدا أو بعد غد، أو لعله لا يأتي ولا يكون أصلاً _ إشارة إلى فصل الانتظار الأخير _، كأننا نعيد قراءة رائعة صمويل بيكيت " في انتظار غودو"، التي تعكس حالنا اليوم، نحن المنتظرين مُخلّصاً غير موجود وغير كائن

من أصله !! ... الرواية احتفاء بالحب وبالجماليات وبالإنسانية في أسمى تجلياتها، وهي كذلك صوت داخلي ينبه الإنسان فاقدَ البوصلة إلى إعادة ترتيب الذات،مُرمِّماً خرائبها، متجاوزا هزائمها، معيدا بناءها دون انتظار ما لن يأتي ...

" حرية وراء القضبان " والبحث عن الهوية المفقودة .

قراءة في رواية " حرية وراء القضبان " للروائية رندلى منصور

لم تعد الرواية خلال سيرورتها التطورية والتحديثية، تلك الفصول الطويلة وتلك الصفحات المثقلة بالتفاصيل الدقيقة وبالحشو الإنشائي والسردي المثقلين لكاهل القارئ على النمط "المحفوظي" في البناء الروائي، أو النموذج الموباساني في البناء القصصي (بداية/ عقدة/ حل/ نهاية)؛ كما لم تعد الأعمال السردية في حقبة ما بعد الحداثة على النمط الكلاسيكي الذي يفرض سلطة تعدد الشخصيات واختلاف الأزمنة والأمكنة، إضافة إلى تعدد زوايا السرد والحكي، وافتراض تعقُّد الحبكة الأساسية الخالقة للتشويق العام من مقدمة العمل إلى خاتمته.

إن من شأن الرواية الحديثة مداهمة المتلقي بمضمون الرسالة مباشرةً، دون الالتجاء إلى ليّ أعناق الكلام، والإغراق في الإغماض والإلغاز إلى مدى يضيع فيه المعنى ويتبخر معه الهدف الأصلي من العمل؛ منتهجةً في ذلك التكثيف السردي ومباشرة الأحداث منذ الفصول والمشاهد الأولى، بلغة بسيطة مفهومة لدى العامة قبل الخاصة، بعيدا عن منطق "الحلاّج" القائل: " من لم يقف على إشارتنا لم ترشدْه عبارتنا"، ليبقى السؤال الأزلي: ما القصدية من وراء ترصيص كلام مشفّر غير مفهوم؟! أليس من الأجدى أن لا يُتفوّهَ به أصلا؟!

في زهاء ستين صفحة ومئة، وعلى مدى ثلاثين فصلا، استطاعت الروائية اللبنانية "رندلى منصور" في باكورتها الروائية " حرية وراء القضبان " نسج شبكة علاقات اجتماعية متماهية مع ما تتكبده شخصياتها المعدودة (يارا، غسان..)، من خلال إبراز وتجسيد حيوات واقعية مختلفة، تعايش ما يحدث على مستوى الواقع، وتتفاعل مع ممارساته وأحداثه بكل صوره الإيجابية والسلبية، ومن خلال خطاب روائي، طرحت فيه الكاتبة منظورها الذاتي وقراءتها الشخصية لأهم انكسارات وصراعات الراهن المعيش، مكتفية بالإيماء إليها وتوجيه الأصابع نحوها، متحررة من شرح الواضحات وتفصيل المُفصّل؛ صحيح أننا لا نراها راوية "بارزة "، وباسطة سلطتها القيَميّة على ألسنة

وأفكار شخصياتها كما قال "باختين": «المتكلم في الرواية هو منتج دائم أيديولوجيا، وأقواله عينة أيديولوجية لازمة لإضاءة الفعل الروائي»[1]؛ لكننا وبالرغم من ذلك، نجدها تطل بكل ثقلها اللغوي، فاتحةً بعض الفُرج بين المقاطع السردية، لتسمح لبعض الطفح الشعري في شكل خلجات نفسية وحوارات داخلية أن يخفف من وطأة امتداد الحكي والسرد بنَفَس واحد. وبشكل عام، لا يشكل حضور الكاتب أو غيابه بين ثنايا الرواية فارقا كبيرا، والقارئ لا يهمه في آخر المطاف سوى ما يحبل به العمل من مضامين ومعان تستفز وعيه، وما يبلوره الكاتب من رؤى وأفكار جديدة تغني زاد المتلقي وتفتح أمامه آفاق أخرى، طبعا، ومن المفترض أن يُصاغ كل ذلك داخل قوالب لغوية قادرة على إنتاج نص " لذيذ " بتعبير " رولان بارث"، وهو الأمر الذي وُفّقت في بلوغه الكاتبة "رندلى منصور" إلى حد بعيد.

الحرية في زمن العبودية، والوطنية في زمن المصلحة والعمالة والخيانة، والقيم في زمن اللاقيم، تماما كمن سعى جاهدا ليكتب على صفحة من ماء وليس من ورق، ثيمات حاولت الكاتبة نحتها على الصخر وصكّها على وجدان هذا العربي المثقل بجراحه وعلله

(1) - المتكلم في الرواية وعلائق الكلام الروائي بالأيديولوجيا، ميخائيل باختين، ترجمة محمد برادة 1985 ص 97.

الاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية، فليس اللاتوازن الذي نعانيه على مدار الدقيقة والثانية إلا تحصيلا حاصلا في آخر القصة؛ أليست النهايات الخاطئة إلا نتائج لمقدمات خاطئة؟

في زمن الشيء ونقيضه، وفي زمن هزائمنا العربية وهويتنا المفقودة، وخرابنا "الجميل" بتعبير الروائي "أحمد خلف"، وفي زمن « مفكك تختل فيه حركته بسهولة، ويدب فيه الاضطراب لأتفه الأسباب، طافح بشرور بشرية »[1]، لم تزل " يارا" بطلة الرواية قادرة على أن تبعث إلينا ببرقية على مشارف النهاية بأنفاسها المتقطعة واعدة إيانا بانتصار قادم لا محالة، عاجلا أو آجلا.. أمل، وجرعة زائدة من التفاؤل تحقنها الكاتبة بذكاء في وجدان القارئ قبل أن يغادر ويغلق دفتي الرواية، وهو على يقين تماما أنه ما من حرية تُقدَّم جزافا وراء قضبان، وما من انتصار مرتقب على الأقل في ظل راهنيتنا المنتكسة على صُعُد شتى، وفي ظل كل المؤشرات السلبية التي تبين أننا بعيدون _ بُعد السماء عن الأرض_ عن ساحات الانتصارات والأفراح والإقلاع، بل لعلنا لا نفكر أصلا في أشباه هذه الأمور ولا تهمنا لا من قريب ولا من بعيد !! وبعد كل ما قيل، هل يستطيع القارئ حقا أن يصدّق ما

(1) - محور الشر، مشكلة الإنسان. د زكريا إبراهيم. مكتبة مصر. ص 96

جاء في وعود البطلة "يارا" أو لعله سيظل مكانه " في انتظار ما لا يجيء" بتعبير "فاروق شوشة"،أو "في انتظار غودو" كما انتظره مطولا بطل "صامويل بيكيت"؟ هل يتحفنا المستقبل بشيء مفرح أم أننا ماضون في حراسة أوهام لا مصداق لها؟

المبدعة " رندلى منصور"،خلال تطوافنا المقتضب على بعض ملامح روايتها "حرية وراء القضبان"،تنزع منزعا حداثيا في بناء عملها الروائي، وبالذات نهايته التي تعمدت فيها كسر أفق انتظار القارئ،وتمردها على البنية التقليدية لتعكس تمرد الذات الساردة على البنية الاجتماعية؛ هذا ونشير إلى ميل الكاتبة إلى استدعاء اللغة الشعرية، وطغيانها على بعض الفصول من روايتها، حتى كادت تتحول دون سبق إصرار إلى قصائد نثرية مطولة، ولا غرابة في هذا طبعا، فالكاتبة مخرت عباب الشعر بديوانها "بلا عنوان" قبل أن تطل علينا بعمل روائي، فغلب عليها الطبع الشعري على التطبع السردي في ما أشرنا إليه، وهذا أمر محمود بالطبع، فكما يقول الأديب محمد سلماوي: " الأدب الذي لا يرتقي إلى مرتبة الشعر لا يسمى أدبا "

"حرية وراء القضبان" عمل روائي ينم عن مدى تمكن الأديبة "رندلى منصور" من أدواتها السردية، وقدرتها على استيعاب وسطها وواقع المجتمع العربي بكل تمفصلاته، وتكثيف أحداثه الدقيقة

وصياغتها في قالب من التشويق السردي، متجنبة الإطناب والحشو الممل وكذا الاختصار المُخلّ. عمل أتمنى أن يجد له صدى عربيا وطريقا نحو المكتبات العربية خارج الحدود اللبنانية.

الروايةُ الصرخةُ وما بعد النزوة ...

قراءة في رواية " نزوة قابيل " للأديبة اليمنية د بلقيس الكبسي.

إننا حقا في مرحلة تاريخية وحضارية حاسمة،ونقصد بلا شك، نحن المنتمين إلى هذا الجزء العربي الثابت على هذه الأرض المتحركة والمتحولة على الدوام. وإذ نعبر هنا بعبارة "الحسم"، فإننا حقا إزاء قرار نهائي لا رجعة بعده، مفاده: نكون أو لا نكون !

بهذا أومأت الأديبة بلقيس الكبسي في باكورتها الروائية " نزوة قابيل" وإن لم تكن الإيماءة باللفظ الصريح، وبهذا زحرت وصرخت، رافعة عقيرتها أمام العالم بكتابة الذات، ممتطية صهوة السرد حينا، وصهوة الشعر حينا آخر؛ والتمازج الشعري والنثري — على كل حال - يضفيان على العمل الأدبي بشكل عام جمالية لغوية تنضاف لجودة سبك المبنى وتشييد المعنى، ومن ههنا ننطلق، مشيرين إلى أن القراءة هاته تتوخى التعريف بالعمل مع إلقاء طيوف ضوئية على بعض جوانبها، دون السعي إلى تقمص دور الناقد ومازلنا في صفوف القراء لا أقل ولا أكثر.

إذا جاز لنا اللعب بالألفاظ نوعا ما، قلنا بلا مواربة إن العمل الروائي الماثل بين يدينا لهو " رصاصة مسدس" بالتعريف التقليدي للشيء الجامعِ الحجمَ الصغير والمفعولَ الكبير في آن. ولعل مئة وثمانين صفحة تثبت بجلاء ما زعمناه في ذياك التشبيه في شقه الأول، أما المفعول الكبير فقصدنا رأسا حجم ما بسطته الكاتبة على امتداد هذه الصفحات من معاناة دموية ألمّت باليمن حضارةً وتاريخا وشعبا على حين غرة، بعدما داهمتها قوى التحالف العربية_ فيما سمي بعاصفة الحزم_، مجبرة إياها الدخول في متاهات حرب اشتعلت منذ 2015 ولم ينطفئ _ للأسف_ فتيلها إلى اليوم، وكأن نبوءة البردُّوني قد تحققت حين أنشد قبل سبع وأربعين عاما:

وُلدتْ صنعاءُ بسِبْتَمْبَرْ // كي تَلقى الموت بنُوفَمْبَرْ

وتموتُ بيومٍ مشهورٍ // كي تولدَ في يومٍ أشْهَرْ

وتظلّ تموت لكي تحيا // وتموت لكي تحيا أكثرْ

هي صرخة يكاد دويّها يبلُغُ العالم العربي من أقصاه إلى أدناه، ومن شماله إلى جنوبه، تماما كصرخة المرأة _ في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم _ المنتهك عرضها من يهودي من بني قينقاع، فكان أن تحرك جيش كامل لنصرتها واستجابة لندائها؛ أو كالعربية المسجونة بعمورية

أيام الخليفة المعتصم، هذا الأخير الذي أعد جيشا بحياله أمام استغاثتها واستنجادها بصيحتها المشهورة: وامعتصماه !؛ أو كاللواتي صرخن في الهند والسند " واحجَّاجاه !" مستنجدات بالحجاج بن يوسف. وإن شئنا التخفف من استدعاء المواضي مخافة إخجالنا، استدعينا علوم الفيزياء إلى حاق الأدب فشبَّهنا صرخة الكاتبة بمفعول أثر الفراشة (نظرية الفوضى)، حيث تستحيل رفرفة جناح في الصين فيضانات وإعصارات ورياحا هادرة في أقاصي أمريكا أو أفريقيا أو أوروبا. فمن يسمع عويل نساء اليمن وقد ولّى زمن المعتصم؟ ومن لمملكة سبأ ولم تعد بها فراشات ترفرف؟ ومن لذاك الماضي الهادئ الجميل إذا كان الحاضر قد نصب كمائنه وألغامه في كل مكان؟ من يحرر رسالة لسيف بن ذي يَزَن يستدعيه من عالمه الروحاني لعله يطهر البلاد ويحرر العباد؟ هي أسئلة محرجة وأخرى طرحتها الرواية استنكارا، تاركة المستقبل القريب أو لعله البعيد يقدم أجوبة شافية لها، لأنه سيكون آنئذ الشاهد الوحيد على تداعيات الماضي المُعاش اليوم .

الغلاف/ العنوان: لمحة سريعة

إن مجرد إلقاء النظرة الأولى على غلاف الرواية وعناصره المتداخلة كاف للتخمين ولإصدار حكم مبدئي على ما قد يحويه هذا العمل الأدبي، خصوصا عند التمعن في العنوان (نزوة قابيل) المحيل رأسا على قصة قابيل وهابيل في الموروث الديني، سواء اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي،الذي تكاد تُجمع أدبياته على ثبوت الجريمة الأولى في التاريخ البشري (قتل قابيل أخاه هابيل)، مع اضطراب واضح في ثبات الأسباب المقترنة بالقرابين. لكن على كل حال، شخصية قابيل مرتبطة في الوعي الجمعي بالقتل وباستنان الإجرام في السلوك البشري، بالرغم من تحفُّظنا على مصطلح "نزوة"، المرتبط في أدبيات علم النفس بالحالة الشعورية المتواصلة التي تولّد سلوكات متكررة إشباعا لحاجة ما، عكس السلوك القابيلي الذي _ على ما يبدو _ لم يتكرر مرة أخرى؛ إنما يسوغ توظيف المصطلح على سبيل الإشارة إلى الحرب اليمنية المُشتجَرة غير المنتهية . لن نطيل التوقف عند أعتاب العنوان كثيرا، فالعناوين وإن كانت المنفذ الأول لأي عمل مهما كان، إلا أنها قاصرة إلى حد كبير عن الوشاية بما يكتنزه المتن بين دفتي الغلاف؛ إذ نزعم أن عنوانا مثل " الإخوة كرامازوف" _ للروسي ديستوفسكي _

يستحيل أن يقدم لنا أبسط الملامح عن العالم الإنساني المتشعب والمتنوع المبسوط بين أحداث هذا العمل الكبير وقس على ذلك. نشير كذلك إلى أن الكاتبة هنا اختارت نمطا دارجا من العناوين، وهو المُعرب نحويا خبراً لمبتدأ محذوف تقديره اسم إشارة (تقدير الجملة: هذه نزوة قابيل) . أما الغلاف الخارجي للرواية، سواء كان من مخيال الكاتبة أو من مخيال المصمم، فله ما يبرره شكلا ومضمونا؛ فاختيار اللون الأسود لونا مكتسحا وطاغيا يبعث برسالة تلقائيا إلى المتلقي مضمونها الحزن والغموض والضياع والأفق المسدود، في حين أن السواد أيضا يرمز للجمال وللأناقة وللسكون وللحب، وكم احتفى العرب بهذا اللون في خواطرهم وفي أشعارهم،إذ لازلنا نتذكر قول قيس بن الملوح:

وقالوا عنكِ سوداء حبشية // ولولا سوادُ المسكِ ما بِيعَ غالِيَا

وقول القائل:

إذا لبس البياضَ صار بدراً // وإن لبس السَّوادَ سَبَى العِبَادَا

وغيرها من الأعمال الأدبية المحتفية بالسواد، نذكر مثالا لا حصرا: **أرض السواد** /عبد الرحمن منيف؛ **حليب أسود** / إليف شافاك؛ **الأسود يليق بك**/ أحلام مستغانمي؛ **العسكري الأسود**/ يوسف إدريس؛ **غواية السواد**/ كريم بلاد؛ **التراب الأسود** / أيوب

النحاس ... وغيرها قديما وحديثا. يشار كذلك إلى أن الغلاف ضم تسعة مؤلفات شعرية ونثرية، كما يمكن للقارئ منا ملاحظة العبارة المُذَيِّلة للدفة الخلفية المقتبسة من متن الرواية نفسها، التي تقول: " الحرب لا تنام والحب لا حد له، لذلك لن أخوض أية حروب فاشلة مهما تمادى الألم لن أنهزم، لن أجازف بالقلب، سألزم الصلاة والحب، يقينا سأنتصر ..."؛ عبارة وشت بالكلمتين / المفتاحين اللتين يجوز بهما الدَّلف إلى عمق الرواية وغورها، وهما: الحب والحرب ...

الحب والحرب: ثنائية التلازم والترادف.

كانت ثنائية الحب والحرب ولا تزال الشغل الشاغل للكائن البشري العاقل،بل، إن معظم تاريخ الإنسان تاريخُ حربٍ وحبٍّ؛ فإذا كان الحب بلا شك غريزة آدمية، فالحرب كما زعم ابن خلدون في مقدمته " أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل".و إن ثبتت الثنائية في حق الإنسان،فلن نبالغ إن أثبتناها أيضا في حق غير العقلاء، ونقصد الحيوان بالذات؛ فهو كما تحدث عنه الجاحظ في موسوعته **الحيوان** لا يمنعه ارتقاءه سلّم الإنسانية سوى عوزه إلى القدرة على التفكير والوصول إلى حرية الاختيار، أما ما عدا ذلك، فهو مضارع للإنسان في أغلب غرائزه، وهو إذن محبٌّ ومحاربٌ . فإذا كان

الأمر كذلك فمن غير المستغرب أن نجد في الأساطير اليونانية والإغريقية حديثا واسعا عن آلهتي الحب والحرب (إيروس وآريس)؛ ومن نافلة القول إذن التذكير بقصص تاريخية كان الحب والحرب فيها الحبكة الثابتة والمتحولة، وهنا نقصد حرب طروادة، وحرب قبيلة بكر بن وائل من أجل الجليلة حبيبة كُليب بن ربيعة، وبطولات عنترة العبسي من أجل عبلة بنت مالك، وغيرها كثير؛ كما يمكن التذكير على السواء بأعمال روائية احتفت بهاتيك الثنائية لا على سبيل الإمتاع والمؤانسة فحسب، بل، لأن أحدهما حقا يستلزم الآخر ومرادف له بشكل ما وإن بدا لنا الموضوعان على طرفي نقيض؛ ولنا مثال في:" **في الحب والحرب** " و" **لمن تقرع الأجراس**" / همنغواي؛ "**عالقة بين الحب والحرب**" / أريج الخصاونة؛ " **لماذا تكرهين ريمارك؟**" / محمد علوان جبر؛ "**أوان الحب أوان الحرب**" / كريم بلاد؛ "**الدرب الضيق إلى مجاهل الشمال** " / ريتشارد فلاناغان؛ " **وقت للحب.. وقت للحرب** " / إريك ريمارك؛ "**ذهب مع الريح**" / مارغريت ميتشل؛ " **دكتور جيفاكو** " / موريس باسترناك؛ "**باب الشمس**" / إلياس خوري؛ " **نوستالجيا الحب والدمار**" / السعيد الخيز؛ "**أحضان مالحة**" / ريمة راعي... وغيرها من أعمال نظرت إلى الثنائية من زوايا متعددة، مُضْفِية عليها لمستها النوعية في الحدث والمخيال والشخوص، وكذا في الزمان

والمكان. إنها الثنائية التي ألهمت الشعراء والروائيين والمفكرين، بل، شغلت حتى علماء النفس كفرويد مؤلف كتاب " **الحب والحرب والحضارة والموت** "، ومايكل ماتيوز صاحب كتاب " **رأس صلب** "، والموضوع على كل حال له امتدادات وتشعبات في مختلف المجالات المعرفية الإنسانية، إلا أن المقام لا يتسع للإسهاب وللتفصيل، وسنكتفي بما تم إيراده وإن اتسم بالإيجاز.

الرو اية: المتنُ حاملا موضوعتي الحب والحرب.

يُحسب للكاتبة في الحقيقة جرأتها _ وهي تكتب عملها الروائي الأول _ على الجمع بين موضوعي الحب والحرب، لما يتسمان به من صعوبة في التناول والتفكيك، فالأول مَعينه العاطفة ودواخل الوجدان، والثاني يصنع المآسي الكبرى ويفتح العين على مشاهد لا تتأتى إلا للقليل، بل، إن الحرب تُلجم اللسان وتُجمّد الأقلام وتُوقف التفكير؛ لكن الروائية استطاعت _ بعدما أخذ الشعب اليمني في التعوُّد على آثار تلك الحرب العدوانية _ حزم أمرها واستجماع قواها الذاتية والانفعالية، وتمكنت من كتابة باكورتها الأولى " نزوة قابيل" مُنهية إياها قبل انتهاء الحرب التي مازالت تحصد الحصائد إلى يوم الناس هذا كما أسلفنا بالذكر. الرواية صيغت من عشر فصول ومن

ثنتين وثمانين ومئة صحيفة، مما يُبرز بجلاء أن الكاتبة إنما كتمت مأساتها الحقيقية وجروحها الغائرة ولم تبح إلا بالنزر اليسير عوض إيثار الكتمان والصمت.

استأنفت الكاتبة روايتها بمعجم مِلنخولي تطبعه السوداوية وكل مفردات الكآبة واليأس والضياع والألم _ كأنك تقرأ بؤساء فيكتور هوغو أو جين آير لشارلوت برونتي_ ، والأصل أن تكون لغة تصف الحرب ومخلفاتها كذلك، فاختارت الكاتبة اقتحام معمعان الحرب وساحتها ووصف ما أحدثته القذائف والقنابل في حضارة امتدت لآلاف السنين وفي بلد أصبح في طرفة عين أكواما من جثث بشرية متعفنة وركاما من حيطان أسمنتية وأخرى حجرية. كل شيء عاد القهقرى وعاد به الزمن خلفًا حتى غدت اليمن بقايا دولة وأشلاء تاريخ . هكذا نظرت البطلة " تُوق "إلى المشهد خصوصا بعدما تُوفي أبوها وأمها وجدّتها نتيجة إحدى القذائف المفاجئة التي أصابت بيت الأسرة جاعلة إياه أثرا بعد عين، إضافة لفقدان أخيها الأكبر "تاج" وعدم ظهور أثر له سواء بين الأحياء أو بين الموتى، بالرغم من وجود شبيه له في غرفة حفظ الجثث.هنا، تتساءل تُوق: لماذا يُقصف المدنيون العُزَّل المجرّدون من كل درع واقٍ؟ السؤال الذي يحيلنا مباشرة إلى مقولة روسو في عقده الاجتماعي مؤكدا أن الحروب إنما هي علاقة بين الدول

لا بين البشر، والعداء يكون للجندي لا للإنسان الأعزل؛ كما يحيلنا السؤال بالضرورة إلى الموضوعة القديمة الجديدة: الحرب والأخلاق. هي أسئلة لم تتعرض لها تُوق بالإجابة الفلسفية في تضاعيف الأحداث وإن حامت حول حماها في بعض المقاطع. المهم أن البقية الناجية من الأسرة (توق) انتقلت للعيش مع العمّ "راجي" بعدما قضت توق أياما في المستشفى، الحدث الذي سيولّد صراعات وتجاذبات نفسية وعاطفية تارة مع زوجة عمها " دهمة" _ المتسلطة الظالمة_ وتارة مع ابن العم " ركان" بارقة الأمل وجذوة الحب الأولى؛ هنا ستتقمص توق ثلاثة أدوار بالضبط مُحافِظة عليها إلى نهاية الرواية: الصراع مع دهمة والبحث عن الأخ المفقود ومشاركة "ركان" ابن عمها مشاعر حب عذري. يستمر هذا الدور ثلاثي المسارات إلى محطات تُفاجئ حقيقة أفق انتظار القارئ، بل، يبدو أن الكاتبة استعجلت إنهاء الرواية وختمها، لأنها _ ونقصد الكاتبة والبطلة في ذات الوقت_ كالتي يُطلب منها رسم وشوم على جسد جثة ساكنة !! من أين لها بالنفس الطويل لابتداع أحداث أخرى في روايتها والجرح المفتوح أعمق مما نظن؟؟ هكذا تداعت الأحداث بسرعة، فأضحت دهمة المتسلطة مُقعدة بعدما غادر الزوج البيت، واختفى ركان بعد انضمامه لصفوف المدافعين عن الوطن، واستطاعت توق العثور على أخيها المفقود لكن

بذاكرة مفقودة كذلك؛ فلم يكن أمام توق إلا الاعتناء بدهمة وبالبيت الذي أصبح شبه فارغ، منتظرة حبيبها ركان لعل المستقبل يجود به يوما ما.

صنع الحرب والموت ما صنعاه في اليمن الجريح، وكان ما كان من شأن الأرواح والجدران، وقد تساءلت الروائية في تضاعيف الرواية: ما الذي يمكن أن يحدث بعد الذي حدث؟ الأحباب شأنهم شأن الموتى أو المفقودين، والوطن تلاشى ودُفن تحت التراب ... كأنها في الحقيقة تُذَكِّرنا بأبيات عبد العزيز الماجشون أحد فقهاء المدينة _ في عهد الخليفة العباسي المهدي _ حين فقد أحبابه قائلا:

لله باكٍ على أحبابهِ جَزَعَا // قد كُنتُ أَحْذَرُ هذا قبل أن يَقَعَا

ما كان والله شُؤْمُ الدّهر يتركني // حتى يُجرّعَنِي من بَعْدِهِمْ جُرَعَا

إن الزمان رأى إِلْفَ السّرورِ لَنَا // فَدَبَّ بِالبَيْنِ فيما بيننا وَسَعَى

فليصنعِ الدّهرُ بي ما شاء مُجتهداً // فلا زيادَةَ شيءٍ فوق ما صَنَعَا

إلا أن الحرب لم يمنع الحب من الميلاد والترعرع، كما لم تمنعه الكوليرا في رائعة كارسيا مركيز، بل، من المصائب ما يجعل هذه العاطفة الإنسانية تبزغ وتتنامى؛ أَ لَمْ يتذكر عنترة ثغر عبلة المتبسّم في خضم إحدى معارك عبْس الحامية؟

إن الموت ينجب الحياة بلا شك، كالحرب تتعهد الحب في رحمها، وما تَوَلَّدَ بين ركان وتوق تحت نير لهيب القذائف إنما هي مشاعر حب عذري بدأ ولم ينته؛ رباط عاطفي جعل البطلة توق تشتبك بحبائل السراب والوهم، خصوصا بعد مغادرة ركان بيت العشق إلى خط اللاعودة... وهكذا الحب،كما ذكر ابن حزم الأندلسي في **طوق الحمامة**، أوّله هزل وآخره جِدّ، ولا يتعانى تداعياته حقيقة إلا من تعاطاه بجدية تامة وتصدى لِلُجَجِهِ الهادرة، وهنا تقدم لنا توق درسا في الوفاء رغم ما يلتبس به من انتظارية ذات أفق متلاشٍ، مؤكدة في ختام الرواية بقاءها على العهد وعلى ذكرى البدايات؛ تقول (ص 182): " سأنتظرك سواء راودتك مسافات الإياب أو باعدتك سنون الغياب، سواء عدت أو لم تعد، سأبقى على قيد الوطن " .

الخاتمة: الباب المفتوح وما بعد النزوة...

البقاء على قيد الوطن إنما هو إحالة على خاتمة مفتوحة، والكاتبة طبعا أذكى من أن تجعل لروايتها نهاية قاطعة، مادامت الحرب مستمرة ولم يخمد لهيبها بعد. الرواية إذن فتحت احتمالا لنهايات متعددة يمكن أن تختتم الأحداث البدئية. وإن شئنا الحديث بلغة المناطقة، أكدنا بلا مجازفة، أن أي عمل روائي مهما كانت أحداثها

وشروطها ومنطلقاتها الأولية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تثبيت نهاية واحدة وإن كانت منسجمة حدّ الكمال مع السياق الروائي العام. إن النهايات الروائية إنما تُكتب اضطرارا لضبط العمل بعدد صفحات محدد دون تمطيط الأحداث إلى حد الشعور بأننا أمام أوديسة أو ملاحم مطوّلة. والحقيقة أنه مادامت الفيزياء المعاصرة استسلمت لمفهوم الزمكان (ارتباط الزمن بالمكان دون فيصل)، فالحدث إن كانت له بداية فنهايته أبعد في المستقبل مما نظن.

ماذا بعد النزوة؟ سؤال يؤرق القارئ أكثر مما أرّق الكاتبة بلقيس الكبسي، كونه يطرح سؤال موازيا يدخل في علم الغيب الخارج عن طوق علم اليقينيات، وهو ببساطة: متى تنتهي حروب العرب؟ أو على مستوى أعلى، متى تنتهي الحروب جملة؟ متى تنقضي أطماع المقتاتين على آلام الشعوب؟ ... أو لعلها لن تنقضي الأطماع مادامت جزءا من الذات الطامحة والمتطلعة... هنا ينبغي الغوص في رواية **" كي لا تنتهي الحرب"** لجورج فرشخ، فلعلّه يطلعنا على نزوة أخرى بعد نزوة قابيل.

ذاتَ رسالةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على حامل لواء الفصاحة والبيان من بني لؤيّ، وصاحب الطّودِ المُنيف من بني عبد مناف بن قُصيّ، محمد بن عبد الله أشرف المخلوقين من كلّ ميّتٍ وحيّ...

أما بعدُ، أخي عُمر لوريكي،

فلستُ أدري أيها الأستاذ الأديبُ إن كنتَ مُصدِّقي أم لا، فأنا حقيقة من الذين لا يؤمنون بالصُّدف ولا بضربات الحظ مهما كانت أفاعيلها بالسّلبِ أو بالإيجاب، فلعلّ هذا نابع من إيمان راسخ بكوننا، كذوات عاقلة، مدعوّين، بل، مضطرّين إلى الاعتقاد _ من مَبْرَقِ الصّبح إلى غياهب الليل _ بأن تشكُّل الأحداث وتعاقبَ الأمور لا يمكن للصُّدف وللاعتباطية أن تتحكم فيهما بأي شكل من الأشكال، فلو كانت الصدفة تصنع فينا ما تريد، لسارعنا إذن إلى نفي الدّقّة والنظام عن

الكون وعن تصميمه الذكيّ، وسلّمنا أن الفوضى والعشوائية ما يتحكم في أمسنا ويومنا وغدنا .

أقول هذا ابتداء بعد تسلُّمي مُسَوَّدَةَ عملك الأدبيّ الموسوم ب " حَجّاياتُ أمّي " وأنا معتكفٌ بكوخي في بطن هذه القرية الباردة. كم كانت عليَّ كالمرء يجد أنيسا في بلاد أناسها أغراب وجدرانها أشباح ومضايق أزقتها أنفاق مفتوحة على المجهول... لستُ مبالغا إذا عبّرتُ لك عن سعادة غير عادية غمرتني لمّا قرأت العنوان أول مرّة، كونه نقلني مباشرة إلى الماضي، مسافرا بي إلى زمن الطفولة الأوّل، حيث سذاجة العقل وطفوليّته تمتزج بطهرانية الذات وعفويتها؛ والأهمّ عندي من هذا كلّه أن أضفتَ حكاياتك ل"الأمّ"... وما ألطفها من كلمة على الروح وعلى القلب حين تُذكر جهراً أو سرّاً، بلغات الأرض مجتمعةً، خاصة إذا فصلتكما الأقدار بحادث من حوادث الدهر، وهذا حالي الآن أسْرُدُهُ لك كأنه بادٍ أمامك... وعنوان عملك كما ترى حرّك رواكد الشجن لديّ، حتى تساءلتُ ذات لحظة: كيف لي أن أقرأ ما تنوء به هذه الورقات وأعظم الشّجا قد لقيته من العنوان فقط؟ أليس الشجا يبعث الشجا؟ آه لقد ذكّرتني بمرثية مُتَمِّم بن نُوَيْرَة حين بكى أخاه مالكًا قائلا:

لقد لامَني عند القُبورِ على البُكا // رفيقي لِتَذْرافِ الدُّموعِ السَّوافِكِ

فقال: أتبكي كلّ قبرٍ رأيتَهُ // لِقبرٍ ثَوى بين اللِّوى والدَّكادِكِ؟

فقلتُ له: إنّ الشَّجا يبعثُ الشّجا // فدَعْني فهذا كُلُّه قبرُ مالِكِ

أمّا ما يتعلّق ب "حجّايات أمي "، فهي نسيج متجانس من حكايات وُجِّهَ أغلبها للأطفال بأسلوب " الأمّ " البسيط المطبوع بالعفوية الطفولية، كالطفل يسرُد لطفل مثله، وعالم الصغير كما تدري كله حقيقة،واقعا كان أو خيالا، وكم كان _ في نظري_ أفلاطون مخطئا في إنفاق وقته في سرديات مدينته الفاضلة، والصغار بين جنبيه قد صنعوا عوالمهم الفاضلة دون إنهاك عقولهم بتفكير فلسفي ممعنٍ في التجريد.

أخي عُمر، لعلك تدري ما تصنعه الحكاية الشعبية في نفوس الكبار بلهَ الصغارِ واليافعين، وأنت أعلم منّي، وأصْلك من شمال المغرب، بدور الأمهات والجدّات هنالك في إذكاء خيالات أبنائهن بحكايا يمتزج فيها الخيال بالأسطورة، ولست أنسى مسرودة جدّتي " حمّو أونامير"، الحكاية الأمازيغة المتوارثة هنا في سوس، الملآى بالأحداث الخيالية المشوبة بالغرائبيّة، نكون أمامها منتبهين وغافلين في الوقت

نفسه، تماما كالأطفال المسحورين المأخوذين بألحان زمّار هاملن في الاسطورة الالمانية القديمة، أو كما قال البحتريّ:

ومن العجائبِ أعْيُنٌ مفتوحةٌ // وعقولهُنَّ تَجولُ في الأحلامِ

لكنها في الحين ذاته تستبطن وقائع تاريخية وأحداثا سياسية مرتبطة بشكل مباشر بعهد الاحتلالين الفرنسي والأسباني . طبعا لا أدّعي أنني لحظتئذ كنت قادرا على استكناه حديث الجدّة، خاصة أن الحكايات الشعبية

طافحة بالرّمزيّة، وذات مُكْنَةٍ رهيبة في توظيف الكنايات والاستعارات والمجازات... والأهمّ من هذا وذاك، قدرتها على منحك أجوبة لأسئلة قد تستفزّ عقلك في يفاعته وفي رُشده، ولهذا الموضوع بالذات صدَّرتُ رسالتي بإنكار الصدفة والحظ، لأني حقّا كنت أُنْعِمُ النظر في بعض مظاهر الحياة التي تحمل الشّيء وضدّه، كالوردة يُغازل جمال وُريقاتها عينيك، لكن الشوك ينتصب على ساقها ليَخِزَ أُصْبُعك ! أو كالطاووس تراه يحمل ألوانه وتحاسينه وزينته الخالبة للألباب على ساقين مَجْرودتين كأنهما ساقا بومة أو غراب ! فكيف لا نقبل من الإنسان إذن ألاّ يحمل الشّرّ والخير كليهما بين أعطافه؟ كل شيء مُعَدٌّ

لكي يستَجْوِفَ كماله في نقصهِ، وبعض النّقص كمالٌ لو نظرنا بعين الحكمة والبصيرة، فأين الصدفة وضربة الحظ وسط كل هذا؟

قرأتُ عملك الأدبي على مهل، والأصل ألاّ يُقرأ الأدبُ خطفاً لئلاّ يُحرق مجهود الأديب،ولئلاّ يُستهانَ بعرق جبينه، وهذا أقل ما يستحقُّه من التكريم والتقدير. ولأنني لستُ ذاك النّاقد العريف ولا الأديبَ الحصيف، فلا أقلّ من إبداء إعجابي بما استمتعتُ به من نزهة تحت أفياء هذه " الحجايّات"، تحديدا المعنونة ب: "قط برّيّ غريب" و" قنفذ ذو لحية بيضاء" و" القطّ الجنّيّ" و"عقيقة ضفدعة " و"ديك بدون رأس ولا رجلين"، فهي وإن كانت موجهة للطفل واليافع، تحمل قيما إنسانية وأخلاقية تناقلتها الألسن والسّلوكات جيلا بعد جيل، كما تدّخر أجوبة لأسئلة عفوية تراودنا حينا في لحظة استرخاء وتأمّل؛ أسئلة لا تستثني عقل طفل ولا عقل شيخ كما أسلفت بالذّكر، وقد تحدّث هانس كريستيان أندرسن،صاحب رائعة "بائعة الكبريت"،قائلا: " حكاياتي الخرافية هي للكبار كما هي للصغار في الوقت نفسه، فالأطفال يفهمون السطحي منها، بينما الناضجون يتعرفون على مقاصدها ويدركون فحواها. وليس هناك إلا مقدار من السذاجة فيها، أما المزاح والدعابة فليست إلا ملحا لها "،وتلكم لعَمْري قوة الحكاية الشعبية والأدب العجائبي عامّة، فهو على بساطته قادر على انتشالك من حيرة تساؤلاتك

في تقلّبها الدّائم، ولك في حكايات كليلة ودمنة وفي أساطير لافونتين وغيرها مما تعرف أبسط الأمثلة.

أختم رسالتي هاته بشكرك أولا على ما منَحْتَنِيهِ من مسرّة القراءة ومتعة السفر بين سطور حكايا " حجّايات أمي". ثانيا أشكرك كما أشكر القدَرَ الذي رتّبَ هذا الميعاد، الذي أسعفتني فيه بعض الحكايات حقيقة بأجوبة جاهزة لأسئلة عَشَّشَت ببالي منذ زمن. ثالثا ستجدني مُنبِّهَكَ إلى هفوات لغوية بين السّطر والسّطر، وإلى هفوات في القصد والتعبير بين المقطع الحكائيّ والمقطع، ولا تعتبر هذا " التّطفّل " منّي إلاّ من باب التّمثُّل بالمقولة العربيّة: " لا تَعْدِمُ الحسناءُ ذَامًّا "، لا من باب التشويش على العمل ولا من باب الأستاذية الوقحة. دام لك المجد والألق ودام لك القلم سيّالاً، كثيرَ السَّحِّ مِدْراراً، مشفوعا بتوفيق الله وعنايته.

والسلام عليكم ورحمة الله

في قرية تِنزرت (تارودانت)

التاسع من أكتوبر/ تشرين الأول 2013

أخوك إبراهيم أوحسين

- وجهت الرسالة للصحفي الأديب المغربي عمر لوريكي بُعيد اطلاعي على مُسوّدة عمله القصصي "حجّايات أمّي" .

من شُرفة الآخر

د عبد الرحمن التمارة: " الناقد هو القادر على إنتاج خطاب نقدي متسم بالفعالية العلمية، وعلى تحقيق إنتاجية معرفية بأفق تنويري."

- * حوار مع الناقد المغربي د عبد الرحمان التمارة لصحيفة المثقف الأسترالية .

شقَّ في فعل القراءة مسارات أخرى غير الطقوسية الطبيعية العابرة للمتون، فتجده تارة متطلعا لبلوغ المعنى، وتارة متطلعا لتجاوز المعنى إلى معنى المعنى؛ فلم يلبث أن وجد في نفسه ذاك " الناقد " المنشغل بالنص الأدبي قراءة وتحليلا، إذ ما جدوى قراءة النصوص إن لم تكن تفكيكية تساؤلية؟ وما جدوى الناقد أصلا إن لم يستطع حمل إزميل الأركيولوجي، مستنطقا لغة النصوص، كاشفا أسرارها الدفينة، وفق ما يقتضيه النقد من منطلقات منهجية دقيقة وشروط إبستيمولوجية محددة. بهذا، استطاع على مدى سنوات مراكمة منجز نقدي مهم مكّنه من نحت اسمه بارزا إلى جانب النقاد المعروفين في الساحة الأدبية النقدية على المستويين الوطني والعربي على السواء.

خطوات ثابتة في درب النقد والسؤال النقدي، ارتبط بها اسم الناقد المغربي الدكتور " عبد الرحمن التمارة "، أستاذ السرديات والنقد الأدبي الحديث بالكلية المتعددة التخصصات التابعة لجامعة مولاي إسماعيل بالرشيدية، اسم أغنى المجال النقدي بالعديد من المؤلفات والأبحاث الرصينة والنوعية في اختياراتها وقيمتها المضافة.كان لنا معه هذا الحوار الماتع والهادف...

1- بداية لا بد أن نسألك عن " عبد الرحمن التمارة "، فما قولكم فيه؟

- إذا كنت تسأل عن الماهية فأنا منشغل بمعرفة ذاتي في كل حين، وبمختلف الوسائل والأدوات التي تجعلني أكتشف الجوانب الغامضة فيها. أما إذا كنت تسأل عن الكينونة فأنا إنسان يعيش الحياة في امتداداتها المختلفة عبر العناية بأسرتي الصغيرة، وأستاذ باحث منشغل بالتربية والتدريس في التعليم الجامعي وما يقتضيه ذلك من التفكير في قضايا معرفية وبيداغوجية، وباحث منشغل بالنقد الأدبي الحديث؛ من نقد السرد الروائي والقصصي إلى نقد النقد الأدبي، راكمت لحدود الآن، من داخل هذا الانشغال، خمسة كتب نقدية في نقد القصة والرواية والنقد.

2-عندما نحتكم للألقاب الأكاديمية،وتبعا لمجال اشتغالكم واهتمامكم الأدبي، فإنكم تحملون حتما لقب أو صفة "ناقد"؛ ومن الطبيعي ألاّ تكون هذه الصفة لائقة إلا بمن تستلزمهم شروط معينة، وإلا جاز أن يكون كل حامل قلم ناقدا. ما هي في نظركم؟

- يجب أن نميّز بين اللقب الأكاديمي باعتباره لقباً مقترناً بمؤسسة تلزم الباحث بشروط علمية يقتضيها الفعل الأكاديمي في كينونته النّوعية، وبين الهوية الذي يكتسبها المنخرط في الفعل الأدبي من مدخل النقد والدراسة. لهذا، فلقب ناقدمتّصل بحجم الإنجاز المعرفي الذي ينتجه دارس الأجناس الأدبية المختلفة، برؤية نظرية أو بتحليل نصي خاضع لشروط إبستمولوجية محدّدة ومضبوطة. من هنا، فالناقد هو الذي يدرس ويحلل ويسائل الظواهر والقضايا والنصوص الأدبية بتصور نقدي غايته بناء المعرفة، وتشييد الأفكار، وإظهار المواقف والرؤى الإنسانية. لهذا، فالناقد الحقيقي يبذل جهداً معرفياً كبيراً ليبني الأفكار، ويؤسس لمطارحة القضايا الأدبية بمنهجية علمية، فيكون خطابه مؤسساً على مفاهيم مضبوطة، تقترن بمرجعية دالة ومحدّدة، وترتبط بنظرية واضحة المعالم والحدود. من هنا، فالناقد يمتثل لآليات التدبير المعرفي والمنهجي الصارم، للظواهر الأدبية المختلفة، أملاً في بناء الدلالات والمعاني، وكشف الأبعاد. لهذا، ليس مهماً أن يحمل الناقد قلماً، أو

حاسوباً يدبج فيه مقالاته النقدية، لكن الأهم أنْ ينتج خطاباً نقدياً متسماً بالفعالية العلمية، وهادفاً تحقيق إنتاجية معرفية بأفق تنويري. من هنا، فمسؤولية الناقد كبيرة، من الناحية الإبستمولوجية، يجب أن تفضي لإدراك حدود النقد، لأن ذلك يؤدي لإدراك غاية وجود الناقد.

3-بعض النقاد يمارسون دور "الوصاية" أو "الرقيب" على العمل الأدبي، فتجدهم يحددون خارطة طريق أمام هذا العمل أو ذاك بما يجب أن يكون وبما لا يجب كونُه. فهل من حق الناقد أن يستخدم هذا الحجم كله من "السلطة "الأدبية إن جاز التعبير؟

- أفهم من هذا السؤال أن العلاقة بين الأديب والناقد مبنية على الصراع، والحقيقة عكس ذلك. يجب أن نتفق على وظيفة الناقد أولاً، لنتبيّن آليات الفعل النقدي وطبيعته التي تجعله كينونة معرفية خاصة ثانياً. من هنا، إذا كان الناقد مطالباً بالحكم والتقويم المؤطر بالأدلة الموضوعية، الذي لا يعني الوصاية والرقابة، فلأن ذلك من صميم العمل النقدي. بهذا المعنى، فاشتغال الناقد ضمن الإطار المعرفي الضابط للممارسة النقدية، يجعل تعامله مع "الإبداع الرديء" حاسماً؛ سواء على مستوى الاقتراح النظري الذي يفيد ضرورة تجاوزه، أم على المستوى

التحليلي الذي يبيّن عيوبه ومظاهر الرداءة فيه. هذه ليست سلطة مدمّرة، بل هي ممارسة تنويرية كاشفة. للأسف كثير من النقاد لا يمارسونها، وكثير من الأدباء يتضايقون منها إذا مارسها النقاد. المهم النقد دائماً في منطقة اللوم؛ سواء تحدث النقد والنقاد، أم صمتوا على بعض الأعمال الإبداعية.

4-هل يمكن أن يتحول النقد إلى "انتقاد"؟ أمأن للنقد حدودا لا ينبغي تجاوزها؟

- النقد مجال معرفي، والانتقاد حكم مرتبط بموقف مبني وِفق رؤية صاحبه. لهذا، لا يمكن أن يصير مجالاً مضبوطاً بمنطلقات منهجية، وبجهاز مفاهيمي، وبرؤية إبستمولوجية، حكماً تقويمياً. كثير من الناس يحصل لهم خلط فظيع بين النقد باعتباره مجالاً معرفياً، يقوم في أحد مراحله على إصدار حكم تقويمي، وبين الانتقاد باعتباره تقويماً كاشفاً لاختلال معيّن في الممارسة الأدبية والنقدية على السواء؛ وقد تؤطره رؤية إيديولوجية منافية للغايات العلمية المراد تحقيقها من الفعل النقدي. وبالتالي، فلا معنى للحديث عن الشق الثاني من السؤال، إذا كان الهدف منه التأكيد على عدم إصدار حكم، علماً أن النقد من ثوابته إصدار الحكم الموضوعي والناضج.بهذا المعنى، فالنقد مهم من جهة التّصور النظري الذي يقترح الأفكار النظرية حول الفعل الإبداعي، ومن

جهة الإنجاز العملي الذي يحلل النصوص الأدبية ويدرسها برؤى معرفية وتصورات منهجية.

5-النقاد -في نظري- صنفان: صنف يدعو الأديب إلى انتهاج البساطة في عمله مبنىً ومعنىً، وصنف يدعو إلى التكلف وإحكام "الصنعة" ليرتقي العمل الأدبي إلى مستوى يمكن به أن يوصف برواية أو بشعر..إلخ. فإذا صح هذا التصنيف، فأي الصنفين أحق بالاتباع؟ أم أن الأديب، وهو يكتب، لا داعي لأن يستحضر ناقدا محتملا أمامه؟

- سأبدأ بالشّق المتعلق بتصورك للنقد. إنّتصنيفك يستند على جهاز مفاهيمي مقترن بالنقد التراثي. لكن خارج منطق الصراع بين الفهم الحديث والقديم للنقد، يمكننا القول إن النقد، ببساطة، ممارسة معرفية يجب أن تتسم بالوضوح في لغتها ومفاهيمها واستراتيجيتها المنهجية، وتقارب النّص الأدبي، بمختلف انتماءاته الأجناسية، برؤية علمية دقيقة تشرّح محمولاته الدلالية والفكرية وأدواته الفنية والجمالية، وتربطها بالسياق التاريخي والحضاري والثقافي، أي كل ما له صلة بصميم الفكر والوجود الإنساني، بلغة إدوارد سعيد. بهذا المعنى، فالنقد البناء هو الذي يتوخى تشييد معرفة منفتحة وتعمّق تراكم الوعي بالوجود والفكر والإنسان والثقافة، برؤية منهجية دقيقة وواضحة، وبلغة معبّرة عن الخطاب النقدي

وكاشفة هويته وماهيته. من هنا، يعيد بناء النص الأدبي بما يوافق منطلقاته المنهجية، وخلفيته الثقافية والمنهجية؛ وفي بنائه ذلك يكشف ماهيته الثقافية المعبّرة عن زمنيته وعصره وهويته، والكاشفة تورط الخطاب المدروس في صراع المواقع والسلطة، وانخراطه ثقافيا في الحياة. لهذا، فالعملية النقدية تقوم على الفعل الخلاّق، لأنها تهتم بالخطاب الأدبي والفني، فتكشف مضمراته وتحليل محمولاته وأدواته، مثلما الأديب يعتني بأدبه، لحظة البناء والتشييد، ويترك الباقي للناقد أو القارئ المحتمل.

6-قد نجازف ونقول: "إننا في زمن الرواية"، ولا شك أنكم ممن يهتمون بهذا الصنف الأدبي قراءة ونقدا. بماذا تفسرون رجحان الكفة لصالح الرواية على حساب الأصناف الأدبية الأخرى، على مستويي القراءة والإنتاج؟

- لا نتوفر على معطيات إحصائية دقيقة لنتأكد من ذلك. من هنا، في تقديري تكتسي "هيمنة" قراءة، وهو أمر مأمول، وإنتاج الرواية رمزية مزدوجة؛ الرمزية الأولى قوامها الاستجابة لسلطة السرد السحرية التي تسيطر على القارئ، فتلزمه بمعرفة أحداث كثيرة تشتغل كتمثيل لحياة بشرية يمكنها أن تكون قريبة منه أو دالة عليه. والرمزية الثانية أساسها التداول الكبير، المدعوم بحوافز

مغرية، للإبداع الروائي في الحقل الثقافي؛ وهو تداول لا يخلو من الرغبة في تثبيت "قدم" العبقرية الإبداعية في حقل صعب، ويعتقد الكثيرون أنه سهل وبسيط، وتكفي "حكاية" معينة لتشييد رواية نوعية، إن لم تحظ بجائزة معينة، فقد تجد لها قارئا ينتشلها من وحدتها في رفوف المكتبات.

7-امتلأت الفضاءات الرقمية بنقاد "رقميين"، يكتبون عن أعمال أدبية بكل ما تحمله كلمة حرية من معنى. هل هذه المساحات الشاسعة المتاحة من طرف الوسائط تلك تخدم الحركة النقدية بشكل عام أم تسيء إليها؟

- النقد له شروطه، والفضاء الرقمي له غاياته. هذه الوسائط تخدم النقد على مستوى الإخبار، وأحيانا على مستوى النشر والتداول. أما غير ذلك، فالنقد نقد، مهما كان حامله (ورقيا أم إلكترونيا). وأعتقد أن غياب الوعي بفضاء بلورة خطاب نقدي يعد في حد ذاته إساءة للنقد والإبداع.بهذا المعنى، أريد أن أقول: الكثير يمارس نقده الخاص في وسائط الاتصال الجماهيري، فينال رضى المشتركين في الوسيط الإلكتروني، ولكنه يخسر هويته كناقد مطالب منه إنتاج معرفة أولاً، ثم العمل على تعميمها بما يفيد الآخرين من جهة ثانية. من هنا، فالوسيط الإلكتروني مفيد في التعريف بالفعل النقدي،

وكذلك بالإنتاج داخله، لكن ليس بسرعة وتسرع، وبشكل يومي يدفع للتساؤل عن جدوائية هذا الفعل وفائدته المعرفية.

8-يقول المفكر البلغاري «تيزفيتان تودوروف»: " النقد ليس ملحقا سطحيا للأدب، وإنما قرينه الضروري، إذ لا يمكن للنص أن يقول حقيقته الكاملة". على هذا الأساس، هل يحتاج كل منتج أدبي إلى نقد (نص ثان) يخرجه من عتماته؟

- لا ليس ملزما بذلك. وهذا يؤكد على حقيقة مفادها أن النقد الأدبي يمكنه أن يندرج في خطابات مختلفة ليست بالضرورة مقترنة بالنقد التحليلي للنصوص. بمعنى أن الحديث عن النقد الأدبي لا يجب أن يكون من منظور تفاضلي مع الأدب، أو من زاوية التبعية. يمكن الحديث عن التلازم التفاعلي، بحيث قد يكون النقد سابقا على الإبداع في حالة النقد التنظيري، وقد يكون النص الأدبي موجوداً ولكنه لا يعدّ أرضية لاشتغال النقد، لأنه يكون ضمن متابعة لحركيته وديناميته في سياق النقد التاريخي. كما يمكن أن يكون نقداً بمعايير محددة سلفا لأنماط مختلفة من النصوص الأدبية، ما دامت الغاية هي كشف الطبيعة المميزة لهذه النصوص؛ سواء على مستوى المضامين، أم على مستوى البناء، أم على مستوى ضبط تفكيكها وتحليلها وفق منهجية إجرائية غايتها تقريب النص

الأدبي من المتلقي في سياق خاص كما هو الشأن مكع النقد المتبلور في الخطاب التربوي.

9-لما سُئل الروائي البيروفي«ماريو فارغاس يوسا»عن معمار الرواية، أجاب بأنها تشكُّل ومزج بين الأسلوب (البناء اللغوي للسرد)، والنسق (خلق انسجام بين الراوي وبين المكان والزمان القصصي)، والإقناع (قدرة الروائي على إقناع القارئ). فإن كان الأمر كما قال الخبير «يوسا»، ألا يجعل الإنتاج الروائي الضخم الذي شهدته الساحة الأدبية اليوم الأدبَ الروائي في خطر؟

- تبدو رؤية يوسا جزئية، لأنها تعبّر عن تجربته وتصوره للرواية، وليس ما هي عليه الرواية في تكونها وتحولاتها المصاحبة لها منذ مدة طويلة. لهذا، فالأدب الروائي في خطر حينما لا يكون كاتبه على وعي نظري بالرواية أولاً، وعلى اطلاع جيد على النصوص الروائية ثانيا، وعلى معرفة بمجمل القضايا التي يمكن أن يتضمنها إنتاجه الروائي ثالثاً.أما الحديث عن "الإنتاج الروائي الضخم" فيبدو، في تقديري،دليل انتعاش ثقافي. وكم نحن في حاجة إلى هذا الإنتاج، كي نؤسس حوافز متنوعة للقراءة. بهذا المعنى، في ظل هيمنة وسائط الاتصال الجماهيري، وشبكة الاتصال العالمية، نحن في حاجة إلى "إنتاج ضخم" ينتشلنا من الارتباط المرضي بتلك الوسائط، التي

صارت أساسية في حياتنا، ويدفعنا للقراءة والتثقيف. لهذا، فالخطر الحقيقي هو أن تتراجع القراءة، أكثر من وضعها الحالي، إلى حدودها الدنيا، بدعوى أن المبدع يجب أن يكتب وهو "كامل". لم يولد "يوسا"، الذي استشهدت به روائيا دفعة واحدة، بل خضع لمنطق التدرج في امتلاك الصناعة الإبداعية الروائية.

10-في كتابكم "سوسيولوجية الرواية، البنية واللغة" قلتم (ص 34): "النص الروائي لا يعيش في عزلة ولا ينطلق من فراغ"، نفس المعنى الذي ذهب إليه الناقد الكندي «نورثروب فراي»، في كتابه "تشريح النقد"، قائلا: "لا يمكن إنتاج الشعر إلا انطلاقا من قصائد أخرى، ولا إنتاج رواية إلا انطلاقا من رواية أخرى". في رأيكم، ألا يفتح هذا المعنى "المتساهل" الطريق أمام "فوضى" التناص والاقتباس في مقابل الأصالة والسبق الأدبيين؟

- أنا لا أتحدث عن التناص، وإن كان ملازما لكل كتابة وكاتب، ويتعذر الانفصال عنه، وإن بطريقة لا واعية. ما أقصده هو علاقة الرواية بعالم الإنسان في تحققه السوسيولوجي، بما هو وجود نوعي، وبما هو نظام من العلاقات المتعددة والمتنوعة. لهذا، فمهما أوغل الروائي في الغرابة، وهنا أستحضر تجربة سليم بركات، في بناء أحداث روايته فإنها تظل، في بعدها الرمزي مقترنة بالإنسان في

تحققه الوجودي والاجتماعي. كما أن رسم تلك الأحداث لا يخلو من تمثل الروائي للعالم الذي يعيش فيه. لهذا، فأقول دائما إن النص الروائي لا يرسم الواقع، ولكنه يعبر عنه، انطلاقا من وسائط جمالية وخطابية ولغوية، مما يصيّر العمل الروائي نتيجة طبيعية لرؤية الكاتب للواقع، في إطار من النسبية والرمزية التي تحجب، بالضرورة، الواقع الفعلي، وترمز إليه. من هنا، فالرواية الحقّة هي التي تبني أصالتها الأدبية انطلاقا من الفهم أولاً، ثم تشييد النّص ثانياً. أما من لا علم له بما يقع في مسار الرواية من تراكم وتحوّل فلن يفلح في الإنتاج الجيّد، وإن حقق "السبق"؛ لأن السبق لا يعني الجودة والجدة.

11-عن دار كنوز المعرفة الأردنية صدر لكم -في طبعة أنيقة- مؤلفكم الأخير "نقد النقد"، وهو محاولة جادة لتعريف القارئ بمسار الانتقال من مرحلة البحث عن "المعنى" إلى مستوى البحث عن "معنى المعنى". هل يمكن الحديث عن "تلاشي" و"ضياع" المعنى عند الانتقال من عتبة النص الأصلي (النص الأول) إلى عتبة نقد النقد (النص الثالث)؟ وهل تفكيك النص الثالث يستلزم بالضرورة خوض غمار النص الأول والنص الثاني قبل كل شيء؟

- كتاب "نقد النقد: بين التصور المنهجي والإنجاز النّصي" يحكمه تصور معرفي بيداغوجي، يمكن بسطه في السؤال الآتي: كيف نحلل وندرس كتابا نقديا يحقق انتماءه للنقد الأدبي؟ أما معطيات توزيع النص إلى مراتب (الأول والثاني والثالث) فجاء للبرهنة على تميز كل نص عن الآخر، وليس أفضلية هذا النص على ذاك. وبالتالي حاولت أن أبيّن أن القراءة النقدية للكتاب النقدي الأدبي (النص الثاني) لها إطارها المنهجي الخاص بها، إذا كنا نراهن على الإنتاج المعرفي. بهذا المعنى، فما يهم المنشغل بنقد النقد هو إنتاج خطاب منسجم منهجيا، ومحكوم بجهاز مفاهيمي خاص، ومراحل تساهم في كشف جوانب متعددة من الكتاب النقدي، وخلق حوار مع أفكار الناقد ومواقفه، وعدم الاكتفاء بالمقاربة الوصفية التي تركز على مضامين الكتاب النقدي، وتجاوز "المحاكمة" و"العتاب" المجاني للناقد حين يبلور خطابه النقدي. من هنا، فالمنهجية التي أقترحها، والدراسات التطبيقية التي أنجزتها، تصبّ في تأكيد أن نقد النقد خطاب إبستمولوجي منتج. لهذا، فإنتاج نقد النقد يلزمه تمهيد ملائم ووصف لمعمار الكتاب النقدي، وإبراز لرهاناته، وكشف لمضامينه، وتحديد لجهازه المفاهيمي، ومناقشه المتن الذي اشتغل عليه، وتوضيح الآليات النقدية المعتمدة في الدراسة النقدية.

12-قبل أيام حصل الروائي السعودي الشاب«محمد حسن علوان» على جائزة البوكر عن روايته "موت صغير"، مما يؤكد قدرة الإبداع الشبابي على المنافسة على المستويين المحلي والدولي. كيف ترون الإبداع الشبابي في الساحة الثقافية اليوم أمام تحديات "الجودة"، وأمام التوجه "الرأسمالي" لدور النشر؟

- يفضي الجواب إلى الحديث عن ثلاث أفكار كبرى، يؤسسها التكامل والتداخل؛ أوّلها: إن تاريخ الإبداع والنقد الأدبي، خارج مقتضيات الزمن والمكان، يقوم على مسار خطي تساهم فيه أجيال مختلفة. هذا يعني أن الأجيال المبدعة تتفاعل بينها على قاعدة التراكم البناء، فيستفيد كل جيل جديد من جيل سابق، ثم يبلور تصوره الخاص في الكتابة الذي لا يعني، بالضرورة، أنه أفضل من سابقه، وسيتميز عن لاحقه. وثانيها، إن الموجة الجديدة من الكتاب الشباب، في شتى المجالات الإبداعية والفكرية والنقدية، تحاول الإجابة عن الأسئلة الإشكالات التي تعترض وجودها الخاص والعام. وبالتالي، فهي "موجة" طبيعية، تحقّق الشرط الذاتي في الكتابة، وتنخرط في سؤال التراكم الذي يؤسس لتوالي الأجيال، ويخدمها ثقافيا ومعرفيا. وثالثها، إن قضية الإجادة والإتقان هي العنصر الفاعل في الكتابة، مهما كان نوعها. لهذا، فالشباب لا يجب النظر إليهم من

زاوية الانتصار الانبهار، أو من موقع الرفض والحصار، بحكم سّنهم الصغير؛ ولكن يجب النظر إلى منجزهم ومدى احترامه لشروط الفعل الإبداعي، وقدرته على الإضافة والتجديد. بهذا المعنى، فكتاب الرواية والشعر والمسرح والقصة والنقد..، من منظور جيلي، بعضهم يبدع بتميز نوعي، وبعضهم ينتج مؤلفات ويراكم إنتاجات تؤطرها البساطة، وإن كان أصحابها يشعرون بتميزها الخاص عن "القدماء". لهذا، أقول كل وضع أو كائن جديد سيصير قديما ومتجاوزا، لكن كل كتابة متميزة ستظل كذلك على الدوام. بمعنى أن الإبداعية الخلاّق هي مقياس تميّز كل كاتب انتمى إلى جيل قديم، أو هو ابن الموجة الجديدة.أما قضية النّشر فلكل واحد مداخله الخاصة.

13- هل ثمة عمل نقدي آت بعد عملكم الأخير "نقد النقد"؟

- حقيقة هي أعمال متراكمة، أرجو أن تسعفني الظروف، الذاتية والموضوعية، لتتمة الإنجاز. وهي أعمال نقدية لها علاقة وطيدة بمشروعي النقدي المنصب على نقد السرد الحديث (رواية وقصة)، ونقد النقد الأدبي.

داليا الحديدي: معنى النجاح في شرعتي يرادف القيمة بمعناها الحق لا الانتشار فحسب.

- **حوار مع الأديبة المصرية داليا الحديدي لصحيفة المثقف الأسترالية .**

لم تجرفها سرعة الحداثة، ولم تؤد فروض الطاعة والولاء لمن سبقوها لحمل القلم وتسطير لواعجهم، ولم تحركها إغراءات الفضاءات الرقمية التي تقدس تكثيف الرأي واختصار الفكرة؛ إنما كتبت وتكتب بما تمليه وتفرضه صروف الحياة التي تأبى إلا أن تشيّد لكل فرد منا بيت أحزان. إنها الكاتبة المصرية المتألقة " داليا الحديدي "، المبدعة التي قبلت فتح قلبها لمنبر المثقف بكل أريحية؛ وكان هذا نص حوارنا معها كاملا:

1_ قال عباس العقاد:

" للإنسان ثلاثة تعاريف:الإنسان كما خلقه الله،والإنسان كما يعرف نفسه، والإنسان كما يعرفه الناس"، فمن هي داليا الحديدي من بين هاته التعاريف؟

ج- بداية، أشكر مجلة المثقف لإتاحة الفرصة للتواصل مع قُرَّائها، وفيما يتعلق بالسؤال،فصدقًالم أكن يومًا عبدة تعريفات، إذ لم تكن تعنيني من حيث هي، بقدر ما كنت أسعى سعي احتياج لمعرفة نفسي للبحث عن الجانب الماضوي فيها أو بالمصطلح الانجليزي I was digging into myself

وللحق فقد اضطررت لمعرفة نفسي لغرض نفعي، نتيجة لمُلحة كانت تدفعني لمقاومة وطرد الفشل، أضف لذلك أن معرفة الإنسان لحاله هي أحد الخطوات في درب معرفته لربه، إذ كيف يعرف الإنسان ربه وهو يجهل نفسه أو لم يفكر فيها من الأساس، سيما أننا نعيش في مجتمع يصنف المفكر كمهنة. فقد اتفق الناس ووافقوا على أن هناك من هو معني بالتفكير بالنيابة عنهم، وعليهم الرضوخ وقبول ما فكر فيه كبار المفكرين!

وللتعريف بنفسي فأنا من أسرة مصرية ولدت ونشأت في العاصمة رغم جذوري الريفية، وقد فوجئت أن أسرتي ككثير من الأسر في مجتمعاتنا العربية تتباين فيها المستويات الإجتماعية والمادية تباينًا فاقعًا، لكن المدهش أنهم يتقاربون ثقافيًا.

والذي كان طيارًا حربيًا، وقد لمست الصعوبات الحياتية اليومية التي عانتها أسرتي لإحداث توازن بين مستواها المادي المتوسط ونظيره الإجتماعي المرتفع نوعًا ما، ما فسر الطبيعة العملية الصرفة للبعض من أفرادعائلتي، فعلى سبيل المثال، الليمون في بيتنا لم يكن يُعتصر، بل كان يُعض عليه بالنواجذ، بالقواطع بل وبالأنياب. فأي قطرة تضيع منه هي بمثابة ضياع فرصة أو خسران مبين أو تفريط في مال يحوزه أفراد العائلة لأن المصاريف متنوعة،سواء لتلبية متطلبات العيش الكريم أو للتعليم والصحة، إضافة لمصاريف المجاملات والطوارئ والظهور بمظهر يناسب المكانة الاجتماعية التي تكافح العائلات الكبيرة من أجلها.

في ظل هذه التحديات التي تواجهها الأسرة المصرية، يكاد يتلاشى الوجود البارز لدور الثقافة او الكتاب أو الفنون، باستثناء مجاراة المجتمع في محفل ما. لكن بالمقابل، كانت عائلتي تولي عناية حقيقية بالتعليم

النظامي لأنه في شرعتها مضمون، "إن تذاكر.. تنجح"، لكن يبدو أن الثقافة بالمعنى الدقيق كانت تُعامل كترف أو ككماليات تعجز ميزانية الأسرة عن تكبد كُلفتها، فبيتنا على سبيل المثال كان يفتقر لمكتبة، بل مجرد "نيش" صغير تُصطف به بعض الكُتب التي تُعد على

الأصابع،من بينها كتب المكتبة الخضراء،فيما تضم أدراجه بعض الكراسات القديمة وبعض الهدايا والتذكارات ناهيك عن اللعب والمهملات والصور، كما لم يكن هناك حرص على حضور المسارح أو الحفلات الموسيقية أو الندوات الفكرية إلا اليسير منها، فميزانية الأسرة لم تكن تسمح بهذا الترف إلا في حدود ضيقة.

عادة ما قد تُتوقع ثمار العلم من بيت تزرع فيه بذور الحكمة، إلا أنني لا أستطيع الادعاء بأني سليلة بيت كان يُعنى بالثقافة والآداب والعلوم بشكل مُتأصل وإن كان يُقدرها –كقيم- كل التقدير. لكن لم تكن بيئتي تمهد لميلاد كاتب أو أديب، رغم أن الأديب عبد العزيز سيد الأهل،المستشار الثقافي السابق لمصر بلبنان والأستاذ بمعهد الدراسات الإسلامية ذا الثمانية والسبعين مؤلفًا، والحاصل على نيشان المعارف من الطبقة الأولى (لبنان 1959)، هذا الأديب الكبير كان من قرابة عائلة والدتي. ما عداه في عائلتنا كان يعمل في التجارة. بالمقابل، أذكر أن أمي أنفقت من وقتها في تعليمي ثلاث لغات،ولن أنسى ما حييت يوم كنت أمية لا أضع سوادًا في بياض، وكانت تضع يدها فوق يدي وتنقش على الدفتر:

a miniscule /A Majuscule

أو يوم علمتني قاعدة نحوية فرنسية

Deux verbes qui se suivent, le deuxieme se met a l'infinitif.

أعود فاقول، إن القراءة لم تكن طقسًا يمارس في بيتنا، فوالدي كان مريضا بضغط-ربما بسبب الطيران- وحينما وجدته يوما يقرأ رواية، أطريته، فاستوقفني قائلًا: للأسف يا داليا،أنا لا أعتبر نفسي قارئا جيد، فمتابعة كتاب تصيبني بالصداع الشديد وحتى قراءتي تكون على نحو ال" Skipping "،أي القراءة السريعة،

ولكم أكبرت فيه خصلة عدم الادعاء الزائف، ولكم استوقفني صدقه معي ومع نفسه. أما والدتي فلم يكن لديها من الأساس وقت للاطلاع رغم شغفها بالعلم، كما أخبرتني مرارًا أنها لطالما كانت تقرأ في الصغر .. هذه البيئة فسرت لي لماذا تهت طويلًا في الدرب.

تعلمت في واحدة من أرقى مدارس مصر"المير دي ديو" وهي مدرسة فرنسية، وملء قلبي امتنان لكل من علموني. لكن هل التعليم في مصر يساعد الطالب على معرفة نفسه أو يعينه على اكتشاف مواهبه؟

أحسب أن الإجابة معروفة سلفًا،لكن على أية حال،بالنسبة لي، ربما كانت مدرّسة اللغة العربية "مدام سميرة" هي أول من نبهني لتميزي في الكتابة، حين منحتني تسعة ونصفا من عشرة في مادة التعبير،سيما عندما أخبرتني أنها كانت على وشك منحي العشرة كاملة لولا خطأ إملائي ..وفي العام ذاته، منحتني "مدام جورجت" أعلى معدل في التعبير الفرنسي، ولا أنسى"مدام ليلى"، وكانت تدرّس الفرنسية في الصف الخامس الابتدائي، وأذكر أن فرط إنسانيتها كان مثيلًا لما قرأت عنه في أشعار "جبران"،فقد كانت بلسمًا على هيئةإنسان بكل ما تعنيه الكلمة.

قلبي عامر بالإمتنان لهؤلاء ولكل من نحت وجداني وأثقله بإهدائي من خيريته ولكل من صدّق أن كل أخضر مهما كان ضئيلا سيثمر ذات يوم بالعناية والسُقيا والرفق.. لكن أحسب أني كنت بحاجة لجرس إنذار أقوى لإرشادي للاستمرار في مسار الكتابة،حيث كنت بطيئة البديهة وقليلة الثقة بقدراتي، لدرجة أن والدي سألني يومًا:ماذا تفعلين؟ فأجبته: لقد أنهيت للتو قراءة "الأيام" لطه حسين ، فقال: استحالة !

المدهش أني صدقت "استحالة" أن أكون قرأت كتابا لعميد الأدب العربي وأنا دون الرابعة عشر.. فقد عدمت التقدير من الأهل، ما جعلني أفتقر للثقة في أن مثلي يستطيع القراءة لكاتب كبير، ناهيك

عن استيعاب مراده.إلي أن جاء يوم كانت أسرتي تستعدّ لاستقبال ضيوف كبار، ففتحت إحدى الأدراج، وإذ بي أجد ثمانية كتب لأسماء كبيرة:"يوسف إدريس، إحسان عبد القدوس المنفلوطي، توفيق الحكيم وغيرهم...،"، فوقع بصري على "الطعام لكل فم" للحكيم. لكن سرعان ما أغلقت الدرج وعدت أدراجي لمساعدة والدتي دون إخبارها بضالتي..وبعدما انفض الجمع ومضى كل إلى غايته، عدت لغرفة الطعام وانتزعت الرواية من مخبئها والتهمتها في أيام، لكن لم أُطْلِع والدي على الأمر خشية التشكيك في قدراتي. لكن أمام نفسي، تيقنت من أهليتي وقدرتي على مطالعة الآداب، وأنه ليس بالصعوبة التي قد يُعتقَد أنه عليها.. وقد أوصلني الحكيم للمنفلوطي ثم قادني الأخير لجبران وبدوره سلمني جبران لأبي ماضي ومنه للعقاد ثم لغابريل غارسيا مركيز ومن ثم لبلزاك ولإيزابيل الليندي وصولًا لجورج أورويل وهكذا...كاتب يرشدك لآخر وأديب يفتح لك أفاقًا لمعرفة المزيد من نفسك، وشيئا فشيئا تكتشف أن ذهبك تحت طينك ...

لا أنكر صعوبةالبدايات، لأن الخيارات تكون على مصراعيها أمامك وأنت وحدك عليك التنقيب في نفسك للتعرف على موهبتك، ثم كيف ستستخدم تلك الموهبة الخام لغزلها ونسجها وتكوين منتج رائج وقيّم منها، أقبل عليه الناس أم زهدوا فيه، علمًا بأن كلمة موهبة

بحد ذاتها كانت تحتاج لتفسير في الصغر. فلقد عشت زمن التلقين وقد علمونا أن النجاح يعني الحصول على علامات نهائية للالتحاق بكليات قمة تسعفك للتعلق بوظيفة تؤمن لك بدورها راتبًا ثابتا، وتحقق لك استقرارًا ماديًا يحول بينك وبين التسول .. وأزعم أن عملية الانسلاخ من تلك المفاهيم لم تكن هينة، بل لم تكن لدينا الجرأة على أن نحلم حلما مضفورا بالرجاء ومعقودا بالطموح في جديلة سمراء متماسكة وطويلة .. لذا فمن الطبيعي أن أعيش ضمن الجوقة التي ضلت الطريق بكل ما تعنيه كلمة الضلال لفترة طويلة.. والمؤسف أنك في صباح حياتك يتلبسك اعتقاد أنك الوحيد الذي يعاني في معركة البحث عن الذات، ثم ما أن تشب لتدق أبواب صيف الحياة، إذا بك تفاجأ بنيران شمس التجربة تلحفك، فتدرك أن كل الكائنات معك غارقة.. وأحسب أن صدق الإنسان مع حاله يجعله يناهض فكرة التميز المزيف بأي شكل،فيرفض أن يستمر في وظيفة لا تحققه أو هواية لا تشبعه، وسرعان مايهجرها ليستوطن نفسه.

لذا، فلربما لا أخجل اليوم إن اعترفت أني كنت من هؤلاء الذين جربوا مهنا شتى وهوايات مختلفة كمحاولة لمعرفة هل ستناسبني هذه المهنة، هل سأعشق تلك الهواية، علمًا بأني لست سريعة الفهم، كما كان إدراكي في الصغر بطيئا نوعًا ما، وكنت سهلة الاضطراب، مؤمنة

بمعتقدات الكبار، على فكرة أن الأهل يعرفون مصلحتك أكثر منك، لكني بنهاية المطاف ترسخت لدي قناعة أن الله وحده هو من لديه قدرات تجعله يعرفك بشكل أكبر، لكن يظل التحدي الأكبر هو أنه بالرغم من قدراتك المحدودة، فعليك أنت نفسك وبنفسك

معرفة حقيقة نفسك .

٢ _ أنتم من الكتاب والمدونين الحاضرين بقوة في الفضاء الرقمي،وتحظون بمتابعة هامة. في رأيكم، ما هي بعض أسباب النجاح عموما في تلكم الفضاءات الافتراضية؟

ج- بالنسبة لي الفضاء الرقمي كان فرصة لنشر كتاباتي قبل أي شيء، وقد يكون معيار النجاح لدى البعض هو الانتشار المحقق للشهرة، لكن بالنسبة لي كم استهدفت أن تُقرأ أعمالي على نطاق واسع، على أن معنى النجاح في شرعتي يرادف القيمة بمعناها الحق لا الإنتشار فحسب، ودائما ما يحضرني قول رب العالمين في سورة الرعد:" فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ".

فالمعنى القيم الخالد والفكرة الصادقة النافعة والمؤثرة في الناس هي معيار النجاح، سواء لاقت قبولهم أم عانت صدّهم. ففي النهاية،

لا يصح إلا الصحيح، ولا تبقى سوى القيم التي تنفع الناس، أما عدد المعجبين أو التعليقات أو المشاركات فليست معيارا، ولا يجب أن تكون علامة نجاح، فالمواقع الإباحية واليوتيوبات الساخرة وأخبار "البابارازي" تجد إقبالا يفوق عشرات المرات أي موقع علمي أو منشور أدبي.

لكن بلا شك، الفضاء الإلكتروني أتاح فرصة ظهور الأعمال الأدبية والفنية للشباب ويسر لهم عرض مواهبهم وتعريف الناس بأعمالهم، لكن يظل معيار النجاح مختلفا عليه. ولن أنكر أن المادة المكتوبة على وسائل التواصل تنتشر أكثر سيما لو تمت مراعاة الاختصار مع إضافة الصورة الجذابة وأحيانا المصاحبة للموسيقى، لكون المنتج الفكري يحتاج لعوامل جذب لضمان إقبال الناس عليه .. وبالنهاية،هناك من يستخدم صفحته لنشر مادة قيمة، فيما آخر يرضيه مجرد التواجد والفضفضة أو نشر صور أقدامه في الجبس أو ربما يعن للبعض اختلاق واقع على قياسات محيط خياله ليرضي وجوده الافتراضي.

٣- تأثر فن المقالة بمجموعة من الأجناس الأدبية الأخرى، فاستطاعت المقالة بذلك أن تخط لها مسارا من التطور والتحديث .كيف ترون تأثيرها وجدواها في ظل ما نعيشه من جنون السرعة؟

ج-المقال من اليوم الأول لم يُخلق ليُخَلَد، فهو أشبه بخبر مطول لكنه مشوب برأي الكاتب أو كما قسمه بعض النقاد إلى مقال ذاتي وآخَر موضوعي، فهو كما يعرفه الدكتور "ربيعي عبد الخالق":"أشبه بنفثة نثرية يفضي بها الكاتب فتكون لسان حاله، ومعرِض تطلعاته"، تماما كمنشورات الفيس بوك التي تحمل الكثير من الفضفضة وأحيانا "فشة خلق" .

ودعني أصرح لك أن الفضائيات ووسائل التواصل شجعت كل من لديه "كي بورد، وواي فاي"،على الكتابة دونما التقيد بدراسة فن المقالة، ثم دعني أصدمك إن تناهى إلى علمك أن عددًا لا بأس به ممن يكتبون المقال لا دراية لهم بالأجناس الأدبية الأخرى، ولا خبرة لهم بخط مسار تطور المقال ناهيك عن تحديثه. فالبعض يجد نفسه بإزاء فرصة ليقتنصها، لذا، فقلما تجد روحا علمية في بيئة المقال الحديثة، فالغالبية تضفي الطابع الذاتي، ومع هذا فالغريب أنها تخلو في ذات الوقت من اختلاف النظرات الفردية الخاصة،حيث ينتشر أسلوب اقتباس مشاعر الآخرين، وإستعارة رؤى وأفكار الآخرين، ونقل منشوراتهم أو إبداعاتهم دون العنعنات أو الإشارة للمرجع دون إضافة أو تحليل، ما يعني أن هناك من ارتضى أن ينعق مع الناعقين، أن يكون حصان عربة وعبدا لأسلوب سواه،عوض أن يكون سيدًا لأسلوبه، هذا

ولم أذكر بعد ما آلت إليه اللغة، فهي تغرغر وتنازع أنفاسها الأخيرة... وكما أن الأخبار يقتل بعضها بعضًا، الخبر الحديث يقتل سلفه القديم، فكذلك المقالات صار يقضي بعضها على بعض، وقلما يعيش مقال اللهم إلا إذا قام الكاتب بجمع مقالاته ونشرها في كتاب. فقلما نجد مقالًا يُترقب كمقالات الأمس، تلك التي تؤرق مضاجع الذاكرة وتحفر الوجدان كمقالات مي زيادة، العقاد، هيكل، أحمد أمين ومصطفى وعلي أمين والزيات والرافعي.

أضف إلى ذلك أنه في السابق، كان القارئ يقتصر على المقالات المحلية لكتاب الوطن، أما اليوم فلم يعد للمقال دوره في ملء الفراغ الأدبي لدى القراء، فالسوق أرحب والتنافس بين بضاعة الفكر على أشده في ظل إمكانية الوصول لأشهر كتاب المقالات في العالم بكبسة زر واحدة، والتحدي أمام الكاتب شبيه بالتحديات التي تواجه زوجة السلطان سليمان وهي تعلم أن عدد الجواري لديه لا حصر له، وعليها كما على الكاتب، جذب القارئ وإنشاء علاقة نسب فكري معه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن قارئ اليوم، يصنف كمثقف ملول يحتاج لجرعة مركزة ومحلاة من المادة الأدبية ليلتهمها في أقل وقت ممكن،كونه ينشد التنقل بين الفضائيات والتطفل على المرئيّ الرقمي...

4_يقول عطاء كفافي في كتابه المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث: من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في كاتب المقالة الأدبية،صدق إيمانه بما يكتب،وحرارة عاطفته لموضوعه،وخفة روحه في عرضه. ما رأيكم في هذا القول؟

ج- وهل يتوقع من مخلوق الادعاء أن من الصفات التي ينبغي توافرها في كاتب المقال هي الكذب أو التكسب والتقوت بالكتابة؟

أحسب أن ادعاء المثالية وارد،على أنالكاتب في قرارة نفسه يعلم أن الصدق بشكل عام وحرارة العاطفة وما ذكرتموه أعلاه هي نعوت إيجابية لا مراء فيها، لكن المحك في الممارسة. وإن أردت أن تسمع مني، فدعني أنبهك الى أن ما يجب أن يتوفر في المقالة الأدبية هو: كاتب على درجة من الصدق مع الذات، بالاضافة لقارئ على درجة أعلى من الوعي كافية لكشف السمين من الغث.

5_كتابك الموسوم ب "حكايات لباقي العمر"حوى القصة والمقالةوالخاطرة، أكانت هذه التوليفة تحت قصد، أم إن القلم جرى مجراه دون نية مبيّتة؟

ج- كتابي "حكايات لباقي العمر" هو الإصدار الأول لي، وهو عبارة عن مجموعة مقالات منتقاة نشرت لي في الصحف على مدار عامين

بخلاف عدد من القصص القصيرة التي نستطيع إدراجها في إطار توليفة ضمن أدب النوستالجيا.

6_نحت حكاياتك منحى استدعاء الماضي والسير بين دروب النوستالجيا،وكأنكم تعيشون ماضيا يأبى على مغادرة الذاكرة.. لماذا أغلب كتابات الأدباء تنحو هذا المنحى في نظركم؟

ج- يجب أن أعترف بكوني بدأت من حيث انتهى سواي من كبار الكتاب، فعادة ما يشرع الكاتب بنشر قصص وروايات، قد يقر بنسبها لبنات أفكاره أو ينكر نسبها لواقعه،ثم قبيل إسدال الستار على حياته يشرع في كتابة سيرته الذاتية، في حين ولكوني شخصية "نوستالجيك" لأقصى الحدود، أنا من تلكم النوعية من البشر التي تعطر وسادتها بأطايب الذكريات قبل الالتحاف بأحلام يقظة مفصلة على قياسات فكرية تناسبني، أدسها عمدًابين الرؤى،نعم، أعيش اللحظة بكل ما فيها من حياة، إلا أني لا ألبث في استدعاء الماضي لأعيد معايشة المشهد باجترار الذكريات السعيدة والاستفادة من تجربة الأيام الصعبة.

وإن كان الماضي يأبى المغادرة،أجد نفسي أنا أيضًا أرفض تطليقه أو خلعه، على أني أجد حرجاً إزاء التحدث نيابة عن غالبية الكتاب لرصد تجربتهم أو شرح أسباب تبنيهم هذا النحو من الكتابة، ولكن

دعني أسألك: كيف تفسر أنت تجاهل كاتب لأحداث حياته وهي ذخيرة تجاربه وكنزه ومعينه وزاده الذي يعيش به وبوصلته التي يحدد بها صواباته وزلاته؟

في اعتقادي، إن أي إنسان كاتبًا كان أو لم يكن، لا ينسى مرارة خبراته ولايتغافل عن حلاوتها، فهي محفورة في جدارات الوجدان ومدونة بمخازن العقل، وبها نزن ونروز تجاربنا ونقارن بينها وبين سواها، ونتعجب من ردود أفعالنا، وكيف كررنا أخطاءنا، ثم نرصد متى كففنا عن تبني نمط معين من سلوكنا،كما نحدد توقيت لحظة الانطلاق أو نقطة التحول في الحياة ونتذكر من احتضناهم ومن أقصيناهم من حياتنا ولمَ ...

إن الكتابة الذاتية هي بوح نكتبه كما ننكتب فيه بهلام الذكريات، لنقرّ أمام العالم وأمام أنفسنا أنها لحظة نقود فيها عجلة الزمن للخلف في لقطة حرفية على الورق،أو في قصة تستجمع فيها كل مواردك الإعرابية للغوص في بحور أشعار أو مشاعر لامست طفولتك أو داعبت مراهقتك حين كنت غرّاً ... هي ممارسة شديدة الذاتية لكن لا يعدم فيها الكاتب الموضوعية إن أراد.

7- قلتم في حكاية سيلفي مع فيروز: "أما أنا فأقول لكم: اركضوا وراء أحلامكم وعينكم عليها ساهرة ! ".

هل تعتقدون أن الشعوب العربية تستطيع أنت تحلم؟

ج- لن أتحدث نيابة عن الشعوب العربية و حتى الشعب المصري لا يحق لي أن أقطع برأي فيه، لكن يقيني أن التعليم المتميز وشحذ الإدراك وإيقاظ العقول قادر على توعية الإنسان بحقه في الحلم وبواجبه إزاء تحديد أهدافه والسعى إليها سعيها.. أما أن يعيش أي فرد ولو كان أجنبيا في بيئة لا توفر سوى تعليم نمطي، فهذا كفيل بطمسه من غرة رأسه لأخمص قدميه، لا طمس أحلامه فحسب. وحتى لو أقررنا بوجود حالات استطاعت التغلب على واقعها وبيئتها كعميد الأدب العربي، فإن الإستثناء لا يثبت القاعدة كما هو معروف.

فالحلم بحاجة لشخصية جسورة تدرك أن من حقها أن تعشق التفكير في الأشياء التي لم تحدث، شخصية حبلى بالكثير من التحديات والعناد لتحويل ما لا يحدث لشيء قابل للحدوث. شخصية لا تخشى رفض الآخرين أو إقصاء الأقربين الذين يتشدقون بعبارة" اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية "، وأمام أول اختبار، يطردونك باسم المقدس !

إن التدخل في انتقاء مسار الدراسة وقبول أو رفض عروس الابن، أبوية توازي ديكتاتورية الزعماء العرب، لكنها منتخبة باستعانة المقدس لحيازة الولاء،ومن ثم يسهل عليها تعطيل استخدام العقل أو إعاقته، أوعلى أقل تقدير تحجيمه. فمن يعلن ولاءه لأحد، فإنه ضمنيًا يوكله على حق التفكير والاقتناع عنه، وهكذا يقيد انطلاق الإبن بحيث نقنن له صورة النجاح ونرسم له أُطر التفوق، الذي لا يعدو أن يكون التخرج بمجموع يؤهله لدخول كليات القمة والالتحاق بالسلك الجامعي، أو بوظيفة مرموقة كفيلة باستدرار النقد الوفير لاستحلاب دخل الإبن، لإعانة أهله ماديًا لتجديد المطبخ والحمام وتزويج الإخوة والتكفل بالمصاريف.

نفعل كل ما سبق دون أدنى شعور بكوننا نؤطر أبناءنا ضمن صورة نمطية ولا نسمح لهم بارتكاب أخطاء في دروب الحياة لاختيار جادة الحق أو مسارات الضلال، كما لم نخترها نحن سلفًا. منتج إنساني كهذا، قمين

بتجريد الطفل من جينات إبداعه، فأنّى يؤمل منه أن يحلم أو أن يحمل إبداعًا أو إضافة للكون؟!

وأنا أشير بأصابعي العشرة لاتهام الأهل لإصرارهم الكؤود لاستعمار شخصية صغارهم حتى حرموهم النضوج كبارًا، كما منعوهم الطيش في ميعة الصبا.

8- حكاياتك حديث للذات عن الذات رغم ما تحمله من رسائل إلى المتلقي.هل كتابك الأول لبنة أولى من

مشروع كبير اسمه سيرة ذاتية؟

ج-لا أجد غضاضة في الاعتراف بأني من أولئك الذين وصفهم أحدد الكتاب بأن" قلوبهم مثقوبة برصاص الذكريات"، فالأخيرة حين تهب عليك، تفتك بك كعاصفة رملية عارمة، فتعشى الأبصار، لكن تظل بصيرتك نافذة لتدوين لحظة معينة أو مرحلة أو ربما حقبة ما ساهمت بسهم حاد في إحياء حياتك.. وكثيرًا ما تكون تداعيات الذاكرة ضاغطة ككرة ثلج تنحدر وتتدحرج من أعلى نقطة من رأس الإنسان، حتى تسقط أسفل الورق بين ناظريه. لكن صدقاً، لم أشرع بعد في التفكير في سرد سيرتي الذاتية بشكل دقيق .. لكن يحدث أن تندفع للكتابة للتأريخ عن سنة قاسية، بعد أن يعيل صبرك أمام رغبتك في تدوين تجربة كنت فيها أسير تأثير جديد ينتزع منك كل ما عاهدت نفسك عليه آنفاً، فتنتبه لكونك عشت عقدًا كاملًا في سنة واحدة،

تركزت خلالها الخبرات والأحداث كطالب وجب عليه دراسة منهج العام كله في ليلة واحدة. وعلى الجانب الآخر،

كثيرا ما عايشت أحداثا أحسب أن القدر يرسلها إلي كمستنطقات، بحيث أشعر أن لسان حال القدر يهمس لي:"هيا أيتها الغبية، لقد مررتها لك وما عليك إلا التصويب نحو الهدف. انقلي المشهد، قصًا ولصقا أو أضيفي بهارات بديع بلاغتك أو احذفي ما تشائين." أنا أفضل الكتابة عن الحدث مع حذف الأسماء، تجنبًا لإحراج أي طرف على قيد الحياة أو على قيد الذاكرة.

9- ما تقييمكم للتجربة الشبابية الأدبية في الفضاء الأزرق؟

ج – في إطار ما اطلعت عليه،أجد أن الشباب استغل الفضاء الأزرق نشدانًا للضوء، فالتجربة الشبابية الأدبية قد تَحَقْق لها التحرر في فضاء الفيسبوك، ما سمح لبقعة الضوء أن تنتشر وتترابط مع العالم، كما تركت فرصة ل " لوتارية" الأمل في إمكانية حدوث انتشار العمل الأدبي على نطاق واسع . لكن عموما يمكن التأكيد على أن بعض التجارب تحتاج للإشادة وبعضها تحتاج لمزيد من الاشتغال والحفر في مادة الأدب والفكر الإنساني عموما.

10- تحديات نشر الكتاب الأول هي نفسها تتكرر أمام كل كاتب عربي. هل أنقذ النشر الإلكتروني في نظركم الكاتب من التأليف في الظل؟

ج- التأليف والكتابة قد يساهمان في إمكانية إحداث تخليد أدبي للكاتب، فإن انقضى عمره لن ينتهي مداد كتبه. وعلى هذا، تبني المؤلف عربيا كان أو أجنبيا هذا الطرح يحرّضه على إجادة منتجه الفكري بغض النظر عن دخول مبيعات كتبه في سباق "الأكثر مبيعًا". لكن قد يتمكن أحد المتفيقهين من إدارة حديث أدبيّ يعلو فيه صوت حروفه الرخيمة بشكل يضفي صفة الحكمة على مفرداته، ما يعني أن النشر الإلكتروني قد يساهم في تضليل القارئ بعرض عدد غير متناه من المواد المكتوبة،والتي لا تنتقد من قبل المتخصصين أو الناشرين، أضف إلى هذا أن التعويل على النشر الإلكتروني غير مضمون،فكما أن فيديوهات ال VHS

لم تعد تستخدم، حتى بات هناك صعوبة لمن تزوج في تسعينات القرن الماضي مشاهدة الفيديو المصور ليوم عرسه، فكذلك قد تحدث تطورات تجعل ما تم تجميعه في ملف وورد لا يمكن فتحه ومطالعته بعد خمسين عامًا.لذا، يظل الورق ضمينا في طوق البقاء.

10- كلمة أخيرة لمنبر مجلة المثقف.

ج – أخيرًا، أود التعبير عن سعادتي بإجراء هذا الحديث المطول مع مجلة المثقف .. كما أرجو ألا أكون قد أفصحت كثيرا عما في ضميري في كثير من شطط الصراحة.

الروائية رندلى منصور: الكتابة فعلُ حياةٍ وإيمان، وإلا فلاداعي لممارسة طقوسها .

- **حوار أجريته لصحيفة المثقف الأسترالية مع الروائية اللبنانية رندلى منصور بعد صدور روايتها "حرية وراء القضبان" .**

على هدى "إبراهيم اليازجي" قائلا: "تنبّهوا واستفيقوا أيها العربُ!" آثرت الشاعرة اللبنانية "رندلى منصور" أن ترسم خطوط روايتها الأولى "حرية وراء القضبان"، كاشفة النقاب عما ينتظرنا من تحديات مستقبلية كأمة عربية لازالت متعثرة في تهجئة حروف هويتها التائهة بين جذور الأصالة وبين حبائل الحداثة وإغراءات العولمة..ويسرّ صحيفة المثقف نشر الحوار الذي تفضلت به الأديبة، متحدثة عن باكورتها الروائية، ومسلطة الضوء على مختلف القضايا ذات الهمّين الأدبي والعربي.

1:: لو أردنا افتتاح حوارنا بتعريف قراء المثقف بك، فماذا تقول رندلى منصور لهم؟

ج1:: رندلى منصور، إنسانة بدأت الكتابة في التاسعة من عمرها، قرأت لمن حولها، أبكتهم حينًا وآمنوا بها أحيانًا، لكن تعلّمت بعد 30 سنة، بأن الكتابة فعلُ حياة وإيمان، وإن لم يكن كذلك، فلا داعي لممارسة طقوسها، لأننّا بذلك نعيدها إلى مساحتها الأرضية.

2:: أنت تكتبين بلغة عربية رصينة في زمن قلّ فيه من يعير لغة الضاد أهمية كبرى، في ظل اللغات الحية الأخرى التي اكتسحت مجتمعاتنا العربية.. أولا ما علاقتك باللغة العربية؟ ثانيا هل يمكن المراهنة عليها حاليا وأهلها في انحطاط مستمر؟

ج2:: أولًا، أشكرك على رأيك الكريم، أما عن لغة الضاد، فنحن المسؤول الأول والأخير عن تدهورها، ففي ظلّ تدهور قيمنا وثقافتنا العربية، ماذا بقي لنا؟

في ظلّ إكتساح لغة الإنترنت العالم، وفرض شروط تعجيزية على البضائع التجارية، ألغت العولمة كلّ الحدود أمام الثقافات، وبحجة أننا نعيش في قرية صغيرة، لم يستطع العرب، إزاء ذلك، إلا المقايضة

بلغتهم، ظنًا منهم، أنهم بذلك يستبيحون حدود الغرب ويحصدون ثمار التطور.

لكنّهم بذلك، لم يجنوا سوى مزيد من الجهل مع طمس التاريخ، كي نساهم وبمجهودنا في دفن كل إنجازات الماضي، التي كانت للأمس القريب، مصدر قلق للآخرين.

أما عن علاقتي بهذه اللّغة، فهي علاقة الجسد بالروح، تموت حروفي إن لم تكن مسكونة بروعة لغة، عجزت عن إعجازها أغلب اللّغات الحيّة، كي لا أكون متطرّفة، إن جاز التعبير.

أما سرّ بقائها فرهن بعاملين، الإقتناع أولًا، بأن بقاءها هو بقاء لحضارة، لم تستطع كل الحروب الدموية والثقافية النيل منها. ثانيًا، الإعتراف بمسؤوليتنا تجاهها، كأهل، وحثّ أبنائنا على المحافظة عليها، وكتربويين، إيلاءها الأهمية التي نعطيها للّغات الأخرى في التعليم، بل أكثر، أن نحترمها، كما يفعل كلّ من الفرنسي، والألماني، والتركي... عندما يرفضون الحديث بغير لغتهم الأم.

3:: في روايتك شاعرية نابضة وطافحة، ألم تكوني تخشين أن تغلب الشاعرة على الروائية وأنت تسطرين فصول روايتك هذه، فتغدو الرواية قصيدة طويلة؟

ج3:: كما الفصول الأربعة المتعاقبة على مرّ السنين، لكلّ رونقه وجماليته، كذا من يحمل ريشة يلوّن بها مساحات الفرح حينًا، أو يغيّر ألوان الحزن ليعطينا حياة، أقلّ قبحًا من الحقيقة؛ جاءت المقاطع الشعرية لتعطي للحقيقة المرّة التي نعيشها، لونًا اسمه الحياة، بعدها ما عدت أدري، إن أنا استغللتُ الشعر لأجمّل الحقيقة، أم استغلّني الشعر لأمسي شاعرة، فأصدر ديواني قبل إصدار الرواية.

4:: يقولون إن هناك انفجارا وفائضا في التأليف الروائي .. فإلى ماذا يعزى ذلك إن كان ما قيل صحيحا؟

ج4: رندلى منصور: في عالمنا العربي فراغ كبير من الضوابط على كل الأصعدة، وبعد التفلّت الأخلاقي على أكثر من صعيد، أمسى عالم الرواية مباحًا، في ظل إمكانية النشر، وكما ذكرتُ في مقابلة سابقة، إن العرب لا يقرأون إلا الرواية، هذا إن قرأوا.

هنا، كثيرون هم من يتحمّلون المسؤولية، بداية، من دور النشر وصولًا إلى وزارة الثقافة. فبدل الرقابة على الفكر، مخافة الوعي، كنت أتمنّى أن تكون مراقبة على الجودة والنوعية أولًا، فالنشر مسؤولية كبرى، ودخول الكاتب مكتبات القرّاء، بيوتهم والمكوث بين أيديهم

لساعات واختراق وجدانهم، ليس بالعمل السهل، ولا بالعمل البريء. على الجميع تحمّل المسؤولية.

5:: الرواية العربية تأثرت بشكل كبير بالأدب الحديث معتمدة على ما وصلت إليه الرواية الغربية.فهل هنالك روايات عربية استطاعت الانفلات من التقاليد الأوربية في الكتابة؟

ج5:: للرواية العربية وضع خاص، أولًا، إنه فن مستحدث في الأدب العربي، عبر التاريخ عرف العرب الشعر وكان من أبرز فنونه، فلا عجب أن نجد تراثًا ضخمًا من المنقول الشعري، فالبداوة ساعدت في ذلك، وسهلّت التجارة نقله، كما برزت الحكاية على لسان الراوي، الذي حمل في طياته بعض بذور الرواية، لكنّه كان على تماس معها ولم يزاوجها.

أما الرواية، فهي حديثة العهد، رغم بروز روائيين عرب، من مصر والمغرب العربي ولبنان وسوريا وغيرهم، إلا أن نشوء فن الرواية في عالمنا العربي إرتبط بحركة الترجمة أولا، ووجود الإستعمار. أما ثانيًا، كان سببه سفر وهجرة العرب إلى أوروبا، إما طلبًا للعلم، أو طلبًا للإستقرار. لذلك لا يمكن إنكار تأثرها بالرواية الغربية، إلا أن الظروف

السياسية، تاريخيًا، أثرت كثيرًا من حيث الموضوعات والتعابير اللغوية. كما أثرت البيئة والطبيعة تأثيرًا بارزًا على بروز روايات من نوع مختلف. أما الحروب والوضع المتدهور حاليًا في محيطنا، خلق إطارًا جديدًا لم يكن موجودًا من قبل، فالإحتياجات الجديدة ومتطلبات الجيل الجديد وطموحاته سيسطر تاريخًا جديدًا للرواية العربية.

موضوع الحريات، الأديان، التطرف وغيرها، طرح تساؤلات جديدة وبالتالي هواجس جديدة، فإن لم نشعر بهذا التغيير بعد، مردّ ذلك ثقافتنا التي تخاف التغيير، لا نملك جرأة قراءة كتّاب جدد، ولا يلاقون الدعم الكافي من الإعلام للأسف، لأنهم لا يدرّون عليهم الأموال، فلا دور النشر تتبناهم، ولا الإعلام.

لكن ذلك لن يطول، فكما يلعب الانترنت دورًا سلبيًا في عدم الرقابة، فلا حسيب ولا رقيب؛ إلا أن ذلك قد يكون مفيدًا في الانتشار أحيانًا، فيصل بعض المغمورين إلى النور، إن كانت أعمالهم تستحق ذلك.

6:: التحولات التي تشهدها المنطقة العربية كان لها وبلا شك الأثر البارز على السرد بشكل عام، خصوصا ما وسَمَ الكتابات الشبابية الحديثة؟ ورو ايتك أشارت على الأرجح إلى ما تكبده لبنان من حروب طاحنة، هل ترين أن الرو اية حاليا قادرة على الإجابة على مختلف الأسئلة المطروحة في الساحة العربية؟

ج6: رندلى منصور: الرواية، كما كل الفنون، مساحة تعبير، إلا أنّها برأيي المتواضع، أكثرها تأثيرًا وتأثرًا. فقدرة الشخصية على التطور والنضوج تعطي للكاتب مساحة خصبة لرسم الإطار الذي يريده كي يتمكن من خلاله إظهار أفكاره وإيضاح رغباته، هواجسه، وخوفه. ولأنها رواية، فهي تعيش مع القارئ وتتعايش معه، تمامًا

كما تحتضنها أحشاء الكاتب، تحملها وتعتني بها يدا القارئ ووجدانه.

هي تكبر وتنمو في فكر الروائي، تترعرع بفعل الإحتكاك اليومي، تسقيها المخيلة ويشذبها الواقع. مخاض الولادة، يقسو كلما اقتربت من النهاية، تولد الرواية تحملها مرّة واحدة بين يديك لتتأكد من سلامتها وتزرعها بعد ذلك في أرض تجهلها، فإما أن تزهر برعمًا في وجدان من يقرأها، وإلا...

وبما أن الروائي أشبه بكاميرا متخصصة، أو بعين باحث، فهو يضع الأشياء تحت المجهر، فيتناول الموضوعات ويصيغها بأدواته حيث يمرّ الآخرون مرور كريم، فلا تتّضح له الفكرة، إلا بعد إنهاء القراءة، وأحيانًا بعد إعادة النظر بالأشياء، وإعادة صياغتها.

7:: قلت في روايتك: الوطن لم يبق فيه غير اسمه !! فهل أصبحت الأوطان العربية بالذات خدعة نصدقها صغارا ونتبرم منها كبارا؟

ج7:: إن الأوطان تسكننا ولا نسكنها، لذلك حين تهتزّ دعائمه، تصبح دواخلنا هشّة. لكنّنا اليوم قد قطعنا أشواطًا أبعد من كونها اهتزّت أو حتى إضمحلّت، أوطاننا ما عادت تسكننا، ولم يبق لها مساحة في الذاكرة، ولم تعد مرسومة في خواطرنا الطفولية، نحن نكاد وبالكاد نتعرّف على خارطة حروفها، ومع التدمير الممنهج لأمل المواطنة، لست متأكّدة، إن كنّا سنذكر حتّى مرور الزمان بمحاذاة أسمائها.

8:: حمّل الروائي الجزائري واسيني الأعرج الإعلام العربي مسؤولية فشل الرواية العربية في الوصول إلى العالمية، واتهمه بالتقصير في أداء مهامه. هل هذا الادعاء في محله في نظرك؟

ج8:: في الحقيقة، واسيني الأعرج، من الروائيين الذين استطاعوا شقّ طريقهم وتعبيده لمن خلفه، وكونه من الأدباء المخضرمين، الذين مارسوا الهجرة طقسًا، من الوطن حينًا ومن النفس أحيانًا، فهو قد خَبِر طعم الهجرة داخل الوطن ومنه. عاش خارج شرنقته ليحافظ على صورتها. عاش وكتب خارج حدود الجزائر، ليُقرأ فيها، كما فعل جبران خليل جبران وغيرهم. أما البعض الآخر، فاختار أن يكتب بحروف بلد اللّجوء لغة الوطن الغائب، وإلا كيف نفسّر كتابة رواية، لكاتب عربي، بلغة أجنبية، تنال جائزة عالمية، تترجم إلى لغته الأم، لتدرّس بعدها في بلاده؟

9:: من يتحمّل كل هذا التقصير؟! الكاتب، القارئ، البيئة، أم الإعلام؟ لماذا لا تترجم كتبُنا العربية، الى لغات أجنبية، لنُقرأ بالشكل الذي نستحق؟

ج:: بلادنا أنجبت أدباء، لكنّها لم تستطع إنجاب قرّاء يرفعون من مستوى الثقافة إلى حدود العالمية، على عكس ما حصل في الغرب!! أتراها أزمة ثقة؟!

10:: مو اقع التواصل الإجتماعي تخدم المثقف وتجعل مجال تواصله أكبر، كيف تنظرين لدور هذه الوسائط الالكترونية في دعم الإبداع والترويج له سلبا أو إيجابا؟

ج10:: مواقع التواصل الإجتماعي، طاقة، وليس هناك طاقة سلبية أو إيجابية مئة بالمئة، بشكل مطلق. لذا فإن طريقة إستخدامها هي التي تحدّد إن كانت تساعد الكاتب أو العكس.

وهنا أود أن أتطرّق إلى تجربتي الشخصيّة مع مواقع التواصل الإجتماعي، لقد بدأت على موقع فايسبوك منذ زمن، بنشر بعض الخواطر على صفحتي الشخصية التي كانت مخصّصة للعائلة، الأقارب والأصدقاء، وهذا قبل أي إصدار لي، بعدها، بدأت الدخول إلى بعض المجموعات الأدبية لنشر بعض ما أكتب، وبدأت تردني طلبات صداقة من مختلف الدول العربية، وبدأوا متابعة كتاباتي، فأصدرت ديواني "بلا عنوان" وفوجئت خلال التوقيع بوجوه لم أكن أعرفها إلا من خلال التعليقات على صفحتي أو في المجموعات.

لا يمكن أن أنكر دور الفايسبوك الإيجابي في مسيرتي الأدبية، فقد كان سببًا لتعرف الناس على كاتبة مبتدئة، وبفعل تواجدهم ودعمهم المستمر، زادت نسبة المتابعة ومساحة الانتشار. ولا أظن أنّنا بحاجة إلى الفترة الزمنية التي احتاجها الأدباء السابقون للوصول إلى الجمهور.

لكن لا يمكن أيضًا إغفال خطورته في ظهور الكثير من المكتوب الذي لا يستحق النشر، من حيث المضمون، واللّغة... فرغم كونه عاملًا مساعدًا، إلا أنه لا يمكن أن يكون أساسًا في التقييم، رغم وجود عدد كبير من النقاد والصحافة، إلا أن العمل المحترف لا يمكن أن يصاغ على صفحاته، بل يجب أن يُنسج في مُحترف يليق بمكانة الأدب وآدابه.

11:: شهد العالم العربي ميلاد جيل جديد من الروائيين، فهل يمكن اعتبارهم امتدادا لروائيي الجيل السابق من حيث الاستلهام وطرائق السرد؟

ج11:: الحياة لا يمكن إلا أن تكون حلقة متّصلة بأُخَر، والكتابة فعل نضوج وحصيلة تجارب. والكاتب إبن بيئة ما وأحداث ما وتجارب ما، قد تمرّ من خلال المعاش الحقيقي أو التحوّلات الإجتماعية

الكبرى، أو الرصيد الفكري الذي أودعه السابقون في الوجدان، فخرج من طيات الواقع الحديث موروثًا جديدًا لمن سيظهر في المستقبل.

12:: ختمت روايتك بوعد قطعته "يارا " البطلة على نفسها، مفاده العودة بالانتصار. هل باعتقادك أن الأمة العربية قادرة على كسب رهان الانتصار تحت مظلة جراحها المتراكمة وهزائمها التي أثقلت كاهلها؟

ج12: رندلى منصور: التغيير لا يولد إلا من رحم المعاناة، الطبيعة البشرية. نحن نتعلّم من الأخطاء، بقدر ما يكون الألم، بقدر ما يصبح الوعي، إلا أن الواقع العربي يخضع لشروط مختلفة، بقدر قوّة الهزيمة، بقدر ما تكون المأساة، نفقد البصر والبصيرة، وهذا فعلًا ملفت! عصور خلت، والهوّة تكبُر وتتّسع، والفجوة سببها الكم الهائل من المثقفين والمفكرين الذين إعتزلوا فنّ الحياة واكتفوا بالتواجد.

قرّرت مع "يارا" بطلة الرواية، الخروج من طيّات المأساة، فالوقوف على الأطلال لم يعُد مُجديا، "يارا" خلال الرواية، قامت بمراجعة للذات، جلدت نفسها حينًا، وحمّلت الآخرين مسؤولية فشلها أحيانًا، لكنّها قرّرت في النهاية خوض التجربة، لم يعُد يعنيها الخطأ بقدر ما أرادت تصحيحه.

"يارا"، قد تكون المرأة التي كانت سبب مأساتها، فهي من ربّى رجلًا لا يعرف كيف يحترمها، وقد تكون الإنسان العربي، الذي سمح بإنتهاك حقوقه، ظنًا منه أنّه يصنع حرّيته، وقد تكون الإنسان الثائر على التقاليد والقوانين من دون البحث عن بدائل، وقد وقد وقد ...لكن في النهاية، لا يمكن أن تستسلم مهما كلّف ذلك، هي تريد أن تحيا، فلا وجود من دون حياة وبالتالي قرار الانتصار، فطرة.

نحن مفطورون على الأمل، وإلا لماذا نفكّر ونختلف، الإختلاف سرّ التقدم والنجاح، مشكلتنا، نحن العرب، أن اختلافاتنا لا توصلنا إلا إلى الخلاف.لتكن "يارا" الإختلاف الذي يزيل القضبان لتصنع من الحرية حياة!

13:: أين موقع الرو اية العربية في الأدب العالمي من وجهة نظرك، ولماذا لم ينل رو ائي عربي حظه من العالمية منذ جائزة نوبل التي فازبها المصري نجيب محفوظ؟

ج13:: للأسف، لقد ذكرت أن العالم العربي لم يستطع خلق قارئ يوصل الرواية العربية إلى العالمية. لكن الأسباب واضحة، أولًا، العرب لا يقرأون بالشكل الكافي، ثانيًا، قراءاتهم موجّهة كما كل خياراتهم، للإعلام الدور الأبرز. كلّنا يعلم كيف يتم إختيار الأفراد

للجوائز العالمية، السياسة لها الدور الأبرز، والمصالح والإيرادات. كي نعرف سبب عدم نيل أي عربي بعد، نجيب محفوظ، جائزة نوبل، علينا التفكير مليًا بمتى

نال محفوظ الجائزة؟ الظروف التي كانت سائدة، الواقع السياسي العربي والمصري بالذات؟ هذا لا يعني أبدًا بأنّه لم يستحققها وبجدارة، لكن كثيرون من العرب وفي مجالات مختلفة، غير الأدب والرواية، إستحقوا هذه الجائزة وغيرها، لكن لا حياة لمن تنادي!

14:: يقول ماريو بارغاس يوسا في رسائله الى روائي ناشئ:

"كل رواية هي كذب يصطنع الحقيقة، خلق تكمن قوة الإقناع فيه تحديدًا في الاستعمال الفعال من لدن الروائي لتقنيات إيهامية وشعوذية شبيهة بصنيع الحوار في السرك أو المسرح" ما رأيك؟

ج 14:: إن التعبير يحتمل الكثير من التأويل والتفصيل. إن كان الكذب، هو الصناعة الأدبية، بكلّ ما تحمل من خلق للأطر الفنية والإبداعية، فهذا صحيح. فالكاتب، في شتّى مجالات التأليف،

يستخدم مخيّلته، وقدراته الإبداعية، ليجذب القارئ، ويبقيه متلهفًا، حائرًا، وكلّما إستطاع إطالة مدّة التشويق، كلّما كان ناجحًا.

15:: لكن هنا السؤال يطرح نفسه، الفن للفن، هل هذه هي غاية الكاتب أو الروائي بالذات؟

ج15::: قناعتي تقول، ما من شيء في هذه المعمورة، وُجد من غير غاية، فالفن بهدف الجمال، لا يتعدّى كونه صناعة، يريد بها الكاتب المبارزة. أما من يكتب لإيصال فكرة، لتشريح حالة، لنكئ جرح أو تعرية حقيقة وبقالب فنّي متماسك، يرقى إلى حدود الإبداع. وهنا يصبح مشعوذًا بمرتبة محترف.

16:: هل تظنين أن روايتك هذه كانت كما قال بارغاس، أم اتخذت لها مسارا آخر خاصا بها؟

ج16::: بصراحة، يصعب تقييم الذات، ومن باب المهنية، أترك الحكم، لأهل الاحتراف.

17:: بخصوص النشر، هل ثمة من مكابدات حقيقية في سبيل وصول عملك الروائي إلى القرّاء؟ وهل تجاوزت روايتك حدود لبنان؟

ج17:: النشر، دائمًا محفوف بالمتاعب، الجزء المادي، أقصد التكاليف، والجزء التقني، بمعنى الطباعة والتوزيع، هو هاجس الكاتب بشكل عام .

18:: كل مؤلّف يطمح إلى الانتشار، وإلا لمَ يتكبّد عناء الكتابة؟!

ج18:: لكي يصل الكاتب إلى القرّاء يحتاج إلى مجموعة من العوامل والظروف، وهي في كثير من الأحيان صعبة التوفر. أولًا، إقناع دار النشر بما كُتِب، وبعدها تأمين المبلغ المطلوب، فدار النشر تبتغي الربح، وإن كنت كاتبًا بلا تاريخ، فمن يتجرأ؟

بعدها يأتي عناء التوزيع، في عصر الإنترنت، ماذا حلّ بالكتاب؟ بالإضافة إلى ذلك يأتي العامل الأصعب، في بيئة ألغت القراءة من قاموسها الحياتي، لمن سيصل ما تكتب؟!

أما عن وضع رواية "حرية وراء القضبان"، فقد إستطاعت خرق القضبان ووصلت إلى بعض الدول العربية، فمن خلال توزيعها في العالم العربي، ومشاركة الدار في معارض الكتاب العربية، قد وصلت إلى القرّاء. ومن خلال متابعتي للأصداء، قد قرئت في عدد من الدول العربية منها الجزائر ومصر وتونس والأردن وسوريا وطبعًا لبنان. هذا يسعدني بالتأكيد، لكنني متفائلة ولا حدود لطموحاتي، فكما وعدت

"يارا"، بطلة الرواية، بالإنتصار، ستتحدّى الرواية الواقع المرير، وأعدكم بالإنتشار!

18:: هل هناك مشروع أدبي ما آت في الطريق؟

ج18:: استكمالًا للسؤال السابق، طُرح عليّ مشروع تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي، وهذا متوقف على إيجاد سيناريو، يضيف للرواية قيمة معنوية، وهناك بعض المشاريع التي تدرس.

أما بخصوص المشاريع الأدبية، ديواني الجديد، في طريقه إلى المطبعة قريبًا، كنت أنوي إصداره ليكون جاهزًا خلال معرض الكتاب في الجزائر، وتكون إطلالتي الأولى في الجزائر الحبيبة من خلاله، لكن لم يحالفني الوقت، قد تأخرتُ. كما أنني لن أستطيع أيضًا توقيعه في معرض بيروت لهذا العام للأسف، لكنه سيكون حاضرًا في فعاليات ثقافية أخرى خلال 2017 إن شاء الله .لكنّني حاليًا في صدد كتابة رواية إجتماعية، ستكون مفاجأة لمجتمعنا العربي، في جرأة الطرح، في بيئة تؤمن بالتابوهات، وتخاف ذكرها؛ لكنّها ما زالت تحتاج إلى بعض الوقت كي تصبح جاهزة لشقّ طريقها إلى النور.

الفهرس

تنويه 5

التفكير بالتنوير في ممكنات الحياة 7

استهلال... 19

الهوية الثقافية 25

أ مازالت سوسُ عالِمةً؟.. 27

أجساد أطفال وعقول فلاسفة !!... 34

التعليم الجامعي: تعليم أم تعذيب؟.. 39

الخبز والسياسة... 46

الدولة العاقلة والدولة المجنونة 54

الدين، من الطمأنينة إلى القلق !! 62

الشعب المغربي والمهدي المنتظر !! 68

أيها الكبار دعوا الصغار يكبرون ! 74

بئرٌ مُعطَّلةٌ وقصرٌ مَشيدٌ.. 80

رسائل إلى الله... 86

العيش المشترك.. 93

عذرا لقد أخطأت القناة يا أمي !!...95
قُفّةٌ وامرأةٌ ورجلُ أمن.. 100
لغة الضاد: عيد ميلاد أم حفل تأبين؟ 106
للرحمة والتحنان ما أحوجك يا عدنان ! 113
قيمتك في درهمك ! 119
الأزماتُ والبِدائِيُّ الذي يَسْكُنُنا !! 126
سرديات مجاورة 135
نجيب محفوظ والنبش في صناديق قديمة !!.............................. 137
بائعة الكلمات... في انتظار ما لا يأتي !..143
" حرية وراء القضبان " والبحث عن الهوية المفقودة 156
الروايةُ الصرخةُ وما بعد النزوة 162
ذاتَ رسالةٍ 175
من شُرفة الآخر..181
حوار مع د. عبد الرحمن التمارة...183
حوار مع الأديبة داليا الحديدي..198
حوار مع الروائية رندلى منصور. 219

كُتبت المقالات المجموعةُ بين دفّتي هذا الكتاب في الفترة الممتدَة بين سنتي 2009 و 2014 ، فكانت أوّل حِبر يسيخُ على الورق من محبرتي نثراً صِرفاً، وأوّل لقاء لي بفنِّ المقالة المُمعِن في الصّعوبة؛ الفن الذي لا يمنحك أقلَهُ حتى تمنحَهُ كلّ ما في كِيس قراءاتك وما في مِخلاةِ زادِك. هي كتابات تركتها على صيغتها وصورتها الأوليَيْن دون إعمال القلم فيها لا بالإضافة و لا بالتهذيب، كالمومياء تُخرَج من تابوتها لا تُمَسُّ إلاّ بمشارطَ مُعقّمةٍ وقفّازات طبيّة.

متنُ الكتاب مكتوبٌ و مجموعٌ على السّجيّة لا على المنهج الأكاديمي، إذ ألحقتُ بالمقالات رسالةً أدبية و بضعة حوارات وقراءات هنا وهنالك، رامياً إلى رَفْدِ الحرف بالحرف والفكرة بالفكرة والمعنى بالمعنى، ففي آخر المطاف الفكر الإنساني كلٌ واحدٌ وإن تعدّد لونا وشكلاً، ولولا أن سبقني بهاء الدين العامِليّ لَوَسَمْتُ الكتاب بالكشكول... وليعذرني الأكاديميُ، صاحب المنهج الصّارم، الخبير في الترتيب والتبويب على هذه الفوضى "الأدبية"، فلست مِمَن وطئت قدماه الجامعة ، ولستُ ممن عرف ما تزعَفُهُ محاريبها وما تدّعيه، ولا بِدْعَ في أنْ يكون على الجاهل و على الغافل غُرْمٌ أو حريجة أو معرّة...

من مواليد 1982 بمنطقة قصبة الطاهر (ضاحية أيت ملول) المملكة المغربية.

معلم في الصف الابتدائي.

صدر له "مدرس تحت الصفر" (نثر)، و "قوافل من كلام" (شعر).

للتواصل : ouhssine1@gmail.com

MOROCCO PENS

AQLAM

مطبعة وراقة بلال